ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٣ ، السنـــــة : ٤٨

ربيع الأوّل ١٤٤٥هـ ، سبتمبر – أكتوبر ٢٠٢٣م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- من ذكريات الهجرة — التحرير — ٣

كلمة العدد

- الصدق من أبرز ميزات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩

دراسات إسلامية

- متى يعود الربيع؟! — الأستاذ شريف قاسم — ١٤
- من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند — الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله — ١٩
- الرد على شبهات كثيرة الورود — الشيخ الكبير المربي الجليل العلامة أشرف على التهانوي — ٢٣
- بين الناسخ والمنسوخ — الأستاذ أسعد قاسم السنبهلي القاسمي — ٣٣
- شاعر المعاني والبديع أبو تمام حبيب بن أوس الطائي — الأستاذ محمد ذيشان أحمد القاسمي — ٤١
- الهجرة النبوية وتأسيس المدينة الإسلامية — الأستاذ الحسين عصمة – المغرب — ٤٥

إشراقة

- أمير حمص في أعلى قائمة الفقراء — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

من ذكريات الهجرة

يمر المسلمون – وهم يعيشون اليوم في مشارق الأرض ومغاربها وضعًا لم يضطرب حبل نظامهم فيه اضطرابَه في هذه الأيام، في جوه بوارق، ومن ورائها صواعق، وهم متفرقون أيدي سبأ، لايجمعهم جامعة ورباط، يخذل الأخ أخاه، ويسلمه إلى بعيد يتجهمه أو عدو تملك أمره، فأصبحوا يخافون أن يتخطفهم الناس من عن يمين أو شمال كما تتخطف الجوارح الصيود – يمرون في هذا الشهر بذكرى عاطرة، ذكرى هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصحْبِه من مكة إلى المدينة، الهجرة التي شكَّلت منعطفًا كبيرًا وتحولًا بارزًا في التاريخ الإسلامي؛ بل في التاريخ البشري برمته، ذكرى مليئة بدروس حية من الصبر والتآخي والمشاطرة والبذل والتضحية: بذل المال و النفس والنفيس، والتضحية بأحب الأشياء إلى المرء من بلد شهد مدارج طفولته وصباه، وتنفس في جوه وهوائه؛ ومفارقة الأهل والإخوان والأقارب إلى بلد لايألفه، وليس به له أنيس.

لقد هاجر أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الهجرتين: إلى الحبشة، ثم إلى المدينة المنورة فرارًا بدينهم، وحفاظًا على معتقداتهم، وليعبدوا الله تعالى في أمن من الخوف، لا أملًا في عيشٍ رغيدٍ، ولاطمعًا في تجارة يرجون نفاقها.

فما أجدر هذا الرعيل الأول من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – الذين قدموا هذه التضحية الكبرى، وهذا الصبر على الألاقي التي استرخصوها، واستعذبوها، واستهانوا بها في سبيل الله تعالى ونيل مرضاته، ونشر دينه – بأن نذكرهم بالتبجيل والاحترام، ونقدرهم، ونثني عليهم الخير.

وقد نوّه الله تعالى بهذه الهجرة وعاقبتها بقوله سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال:٢٦].

وتذكروا أيها المسلمون، أن الله تعالى منح أسلافنا ما منحهم من ملك وسيادة وعز و شوكة، وآواهم وأيدهم بنصره و رزقهم من الطيبات، لا محاباةً وجزافًا؛ ونعاني نحن الحرمان الشديد مما كانوا عليه من سعادة، وحِيل بيننا وبين ماكانوا عليه من سيادة، فهل كان ذلك بخلًا وإخلافًا من الله تعالى؟ لا والله، إنه عليم لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، خبير بما يستحقه كل أحدٍ، وإنه عادل لايظلم الناس مثقال ذرةٍ، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، فأعطى كل واحد ما يستحقه، قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠]. [التحرير]

(تحريرا في الساعة العاشرة صباحا من يوم الجمعة: ١٦/المحرم الحرام ١٤٤٥هـ= ٤/أغسطس ٢٠٢٣م)

الصدق من أبرز ميزات الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أرسل الله تعالى من البشر رسلا، يدعونهم إلى أن يوحدوه ويعبدوه، ولايشركوا به شيئًا، و يعلموهم ويزكوا أخلاقهم وخصائلهم، ويؤصلوا فيهم المعاني النبيلة والأخلاق السامية. وأرسل الله تعالى محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتمًا للرسل والأنبياء، وفيه أسوة حسنة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]. ومن الصفات المثالية التي كان يتحلى بها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصدق، فكان أسوة حسنة في الصدق، فإنها صفة راقية وسلوك قويم سامٍ، ومبعث الثقة وأس التسليم والانقياد.

واشتهر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصادق الأمين في المجتمع المكي قبل أن يبعثه الله تعالى رسولا إلى الناس كافةً. وتتلألا على محياه معالم الصدق والأمانة، فلايكاد ينظر إليه أحد إلا شهد بصدقه في الحديث. وتحكي كتب الحديث والسير كثيرًا من القصص والمواقف التي تؤكد هذه الخصلة السامية في الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذه قريش أعادت بناء الكعبة، وتقاسمتها أرباعًا فلما انتهوا إلى الحجر الأسود، تنازعت القبائل أيها يضعه موضعه، حتى كادوا يقتتلون، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل عليهم من بني هاشم. فكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أول داخل، فقالوا: هذا محمد، هذا الصادق الأمين، رضينا به، فحكموه، فبسط صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رداءه ووضع الحجر فيه، وأمر أربعةً من رؤساء القبائل الأربع، أن يأخذوا بأرباع الثوب، فرفعوه إلى موضعه، فتناوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده المباركة، فوضعه في موضعه. وفي «الصحيحين» [صحيح البخاري:١٥٨٢]: أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حضرهم يومًا في بناء الكعبة فذهب هو، وعمه العباس ينقلان الحجارة، فقال له العباس: اجعل إزارك على عاتقك كما يفعلون، ففعل، فخر إلى الأرض مغشيًّا عليه، وطمحت عيناه إلى السماء، وقال: «أرني إزاري»، فشده عليه»(حدائق الأنوار، ص ١٩٩).

جاء في قصة الصحيفة التي تكاتبت قريش على بني هاشم وبني عبد المطلب والمسلمين من غيرهم، وعلقوها في الكعبة، ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا طالب بأن الصحيفة قد أكلتها الأرضة، فجاء أبوطالب صناديد قريش وقال لهم: «إنما أتيتكم لأعطيكم أمرًا فيه نصف بيني وبينكم، هذه

الصحيفة التي في أيديكم إن ابن أخي قد أخبرني، ولم يكذبني أن الله عز وجل بعث عليها دابة فلم تترك فيها اسما لله إلا لحسته وترك فيها غدركم وتظاهركم علينا بالظلم، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا، فوالله لا نسلمه حتى نموت عن آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلا دفعنا إليكم صاحبنا، فقتلتم أو استحييتم. فقالوا: لقد رضينا بالذي تقول، وفتحت الصحيفة، فوجدوا الصادق المصدوق قد أخبر خبرها قبل أن تفتح فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا: والله ما كان هذا إلا سحرًا من صاحبكم فارتكسوا وعادوا لشر ما كانوا عليه من كفرهم والشدة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ورهطه والقيام على ما تعاقدوا عليه»(دلائل النبوة ١/ ٢١٢).

ولما أسلم حمزة أدركت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد عز وامتنع فكفوا عن بعض ما كانوا يتناولون منه، وقال حمزة في ذلك شعرا. قال ابن إسحاق: ثم رجع حمزة إلى بيته فأتاه الشيطان فقال: أنت سيد قريش اتبعت هذا الصابئ وتركت دين آبائك، للموت خير لك مما صنعت، فأقبل على حمزة بثه وقال: ما صنعت؟ اللّٰهم، إن كان رشدًا فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجًا. فبات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح فغدا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا ابن أخي! إني قد وقعت في أمر لا أعرف المخرج منه وإقامة مثلي على ما لا أدري ما هو، أرشد هو أم غي شديد، فحدثني حديثًا فقد اشتهيت يا ابن أخي أن تحدثني. فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكره، ووعظه، وخوفه، وبشره، فألقى الله في نفسه الإيمان بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أشهد أنك الصادق شهادة الصدق. فأظهر يا ابن أخي دينك، فو الله ما أحب أن لي ما أظلت السماء وأني على ديني الأول، فكان حمزة رضي الله عنه ممن أعز الله عز وجل به الدين»(دلائل النبوة ١/ ٢١٤).

وذكر النضر بن الحارث قومه – وكان من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة – بعض أوصاف النبي ﷺ لقومه ثم نصح لهم فقال: «يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم[1]، وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم؛ فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم (سيرة ابن هشام، ص ٢٩٩).

وهـذا أبـو جهـل عـم النبـي ﷺ ألـد أعدائه يعـترف لـه بالـصدق كـما جـاء في تفـسير قولـه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣] أن الأخنس بن شريق سأل أبا جهل، وقد خلا كل منهما بالآخر يـوم بـدر، فقـال: يـا أبـا الحكـم، أخـبرني عـن محمـد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبوجهل: ويحك، والله، إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهـب بنـو قـصي بـاللواء، والحجابـة، والـسقاية، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش.

وساق ابن الجوزي في «تفسيره» ثلاثة أقوال أخرى في سبب نزول هذه الآية: أحدها: أن رجلا من قريش يقال له: الحارث بن عامر، قال: والله يا محمد، ما كذبتنا قط فنتَّهِمَك اليوم، ولكنا إن نتَّبِعْك نُتَخَطَّفْ من أرضنا، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: كان الحارث بن عامر يكذِّب النبي في العلانية، فإذا خلا مع أهل بيته، قال: ما محمد من أهل الكذب، فنزلت فيه هذه الآية. والثاني: أن المشركين كانوا إذا رأوا النبي ﷺ قالوا فيما بينهم: إنه لَنبي، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح. والثالث: أن أبا جهل قال للنبيّ ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نُكذب الذي جئت به، فنزلت هذه الآية، قاله ناجية بن كعب. وقال أبو يزيد المدني: لقي رسولُ الله ﷺ أبا جهل، فصافحه أبو جهل فقيل له: أتصافح هذا الصابئ؟ فقال: والله، إني لأعلم أنه نبي، ولكن متى كنا تبعًا لبني عبد مناف؟ فأنزل الله هذه الآية.

ولم تجرب قريش الكذب على رسول الله ﷺ حتى قبل أن يبعث. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: «يا صباحاه» فقالوا: من هذا؟، فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟» قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». قال أبو لهب: تبًّا لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١]. وفي رواية: قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا [صحيح البخاري:٤٩٧١، ٤٧٧٠].

وعن موسى بن طلحة عن عقيل بن أبي طالب قال: جاءت قريش إلى أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك يؤذينا في نادينا، وفي كعبتنا، وفي ديارنا، ويسمعنا ما نكره، فإن رأيت أن تكفه عنا فافعل. فقال لي: يا عقيل، التمس لي ابن عمك، فأخرجته من كبس من كباس أبي طالب فجاء يمشي معي يطلب الفيء يطأ فيه لايقدر عليه حتى انتهى إلى أبي طالب فقال: يا ابن أخي، والله لقد كنت لي مطيعًا، جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم وفي ناديهم فتؤذيهم وتسمعهم ما يكرهون، فإن رأيت أن تكف عنهم. فحلق ببصره إلى السماء وقال: والله، ما

أنـا بقـادر أن أرد مـا بعثنـي بـه ربي، ولـو أن يـشعل أحدهم من هذا الشمس نارًا. فقال أبو طالب: والله ما كذب قط، فارجعوا راشدين (ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى،ص ٢٢٣).

وفي قصة أبي سفيان مع هرقل حين طلبه هرقل إلى مجلس، وسأله عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال هرقل لأبي سفيان: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلتُ: لا. ...ثم قال هرقل له: وسألتك، هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله». فهذا اعتراف صريح من أبي سفيان بصدق رسول الله ﷺ ولم يكن آمن به يومئذ.

ونزل الوحي على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول مرة في غار حراء، ورجع رسول الله ﷺ إليها وهو يقول: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ، حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ: «يَا خَدِيجَةُ! مَالِي، فَأَخْبَرَهَا الخبر». ثم جاءت به إلى ورقة بن نوفل- وكان قد تنصر في الجاهلية - فسألته عن جبريل، فسألها ورقة: ما الخبر؟ فأحلفته أن يكتم ما تقول له، فحلف لها، فقالت: إن محمدًا ذكر لي- وهو صادق- أحلف بالله ما كذب ولا كذب- أنه نزل عليه جبريل بحراء، وأنه أخبره أنه نبيّ هذه الأمة، وأقرأه آيات أرسل بها(دلائل النبوة).

وروى ابن كثير في «سيرته» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: قال: اجتمع قريش يومًا فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا، و شتَّت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه، ولينظر ماذا يرد عليه. فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد. فأتاه عتبة، فقال: يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله، ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى، أيها الرجل! إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فرغت؟» قال: نعم. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ إلى أن بلغ ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١-١٣]. فقال عتبة: حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: لا. فرجع إلى قريش فقالوا: ما

وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته. قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم. ثم قال: لا والذي نصبها بنية ما فهمت شيئا مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية لاتدري ما قال؟ قال: لا، والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة.

وقد رواه البيهقي وغيره عن الحاكم أيضًا وفيه كلام. وزاد: وإن كنت إنما بك الرئاسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسا ما بقيت. وعنده أنه لما قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، أمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه، ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم. فقال أبو جهل: والله يا معشر قريش، ما نرى عتبة إلا صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، انطلقوا بنا إليه فأتوه. فقال أبو جهل: والله يا عتبة، ما جئنا إلا أنك صبوت إلى محمد، وأعجبك أمره، فإن كان بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد. فغضب وأقسم بالله لا يكلم محمدًا أبدًا. وقال: لقد علمتم أني من أكثر قريش مالا، و لكني أتيته، وقص عليهم القصة، فأجابني بشيء -والله- ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة، قرأ (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) «حتى بلغ» ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب».

وفي قصة غزوة الأحزاب: خرج نعيم بن مسعود الأشجعي حتى أتى أبا سفيان بن حرب وقريشا، فقال: اعلموا أني قد اطلعت على غدر يهود، إني سمعت محمدًا يحدث أن بني قريظة، و صالحوه على أن يرد عليهم إخوانهم من بني النضير إلى دورهم وأموالهم، على أن يدفعوا إليه الرهن و يقاتلون معه ويعيدون الكتاب الذي كان بينهم.

فخرج أبو سفيان إلى أشراف قريش فقال: أشيروا علي، وقد ملوا مقامهم وتعذرت عليهم البلاد، فقالوا: نرى أن نرجع ولا نقيم فإن الحديث على ما حدثك نعيم، والله ما كذب محمد، وإن القوم لغدر. وقالت الرهن حين سمعوا الحديث: والله لا نأمنهم على أنفسنا، ولا ندخل حصنهم أبدًا (دلائل النبوة للبيهقي).

هذه بعض المواقف في حياة النبي ﷺ يتجلى بها شدة تمسكه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالصدق ومواظبته عليه طول حياته، فليأتس المسلمون به ﷺ في الصدق؛ فـ«إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقا. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا»[صحيح البخاري:٦٠٩٤].

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)

تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

الكعبة المشرفة قيام للناس في دينهم ودنياهم. والحج والعمرة من العبادات التي يرجع أداؤهما إلى الكعبة مباشرة، ولكن يُشترط في الصلاة استقبال القبلة، فكان قيامًا لعباداتهم الدينية. ثم إن مئات الآلاف من الناس يتجمعون من جميع البلاد الإسلامية بمناسبة الحج وغيره، فيكسبون ما لايحصى من الفوائد التجارية والسياسية والأخلاقية والدينية والروحانية. وجعل الله تعالى هذا المكان حرمًا آمنًا. فيأمن فيه الإنسان؛ بل كثير من الحيوانات أيضًا، وكان الرجل في العهد الجاهلي- الذي كان الظلم وسفك الدماء، والفتنة والفساد أمرًا عاديًّا فيه- يلقى الرجل قاتل أبيه في الحرم فلايتعرض له. وإن المرء ليبلغ به العجب والحيرة كل مبلغ حين يرى المواد الغذائية وأنفس الثمرات والفواكه تجبى إلى هذا الوادي غير ذي الزرع بكثرة كاثرة. وقد تدخل هذه النواحي كلها في (قِيَامًا لِلنَّاسِ). وأهم من ذلك كله أن الله تعالى كتب في علمه أن الينبوع العالمي والأبدي للبشرية ينفجر من هذا المكان. وأن هذا التراب هو الذي يسعد في العالم بأن يكون مولد ومسكن المصلح الأعظم وسيد الكون محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فيمكن القول بأن الكعبة قيام للناس بالنظر إلى ذلك كله، فإن الكعبة هي النقطة الأساسية المركزية لإصلاح الأخلاق وإكمال الروحانية وعلوم الهداية للبشر كلهم على وجه البسيطة. ولايقوم شيء من غير نقطته الأساسية. أضف إلى ذلك أن المحققين ذهبوا إلى أن معنى (قِيَامًا لِلنَّاسِ) أن وجود الكعبة المشرفة سبب قيام العالم كله وبقائه. وسيظل الكون قائمًا ما دامت الكعبة والأمة التي تحترمها قائمتين. وحين يريد الله تعالى القضاء على نظام الكون هذا،

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

فيقال: إن أول ما يرفع هو هذا البيت المبارك، كما أنه أول بيت وضع للناس: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران:٩٦]. وروى البخاري في صحيحه: يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»[1]. ولن تفلح أمة – مهما بلغت من القوة-في هدم الكعبة وتحقيق نواياها النجسة مادام يريد الله تعالى الإبقاء على نظام العالم هذا. وليس أحد إلا قد سمع قصة أصحاب الفيل. وتلاهم أمم كثيرة وأشخاص كثيرون خططوا ويخططون مثل ذلك، ولكن من آياته الكبرى على حفظه سبحانه، وصدق الإسلام أنه رغم فقد الأسباب الظاهرة، لم ولن يحقق أحد هدفه الشيطاني هذا. وحين يزول دفع الله الناس عن هدم الكعبة فاعلم أن خراب العالم قد أوشك. وإن الحكومات في الدنيا تضحي بنفوس مئات الآلاف من جنودها حفاظا على عاصمتها وقصرها الملكي، فإن أرادت إدخال تعديل أو ترميم إلى القصر الملكي لمصلحة من المصالح، فإنها تستخدم في هدمها العمال العاديين.

ولعل الإمام البخاري أشار إلى هذا المعنى الذي ذكرناه بإيراد حديث ذي السويقتين في باب (جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البيتَ الحرَام قِيَامًا لِلنَّاسِ). (ونبه عليه الشيخ المترجم -أي شيخ الهند- قدس سره في دروس البخاري). وعلى كلٍ، الآية التي بين أيدينا تتوخى التنويه بأمر الكعبة وحرمتها عقب ذكر أحكام المحرم، ثم ذكرت الشهر الحرام والبدن والقلائد بمناسبة الكعبة والإحرام، كما في أوائل هذه السورة ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:١] قرنه بقوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ [المائدة:٢] والله أعلم.

فائدة: ما جاء من مراعاة المصالح الدينية والدنيوية في جعل الكعبة وغيرها قياما للناس، وما تنبأ به من الأمر العظيم على خلاف العقل فيما يبدو، دليل على أنه لايخرج شيء في الأرض ولا في السماء من حيطة علم الله اللامتناهي.

ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾

أي ما أنزلنا عليكم من الأحكام الخاصة بالإحرام أو تعظيم الكعبة وغيرهما إن تعمدتم عصيانه فاعلموا أن الله شديد العقاب، فإن كان عن خطإ، ثم تداركتموه بكفارة وغيرها فإن الله غفور رحيم.

مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

بلغ النبي ﷺ رسالة الله تعالى، وأدى ما وجب عليه، وتمت حجة الله تعالى على العباد، فما تعلمونه ظاهرًا أو باطنًا لايخفى على الله

تعالى، ثم يعرض عليكم كل ذرة منه يوم الحساب والجزاء.

قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

جاء قبل هذا الركوع التحذير من تحريم الطيبات، والأمر بالتمتع بها بالاعتدال والوسطية. وأكمل هذا المعنى ثم ذكر تحريم الخمر وغيرها من الأرجاس والأنجاس. وحرَّم في هذا الصدد صيد المحرم، أي اعلموا أن صيد المحرم خبيث مثل الخمر وغيرها من الخبائث. واستطرد إلى بعض الأمور الجانبية بمناسبة ذكر المحرم، ثم نبَّه على أنه لايستوي الخبيث والطيب. فالقليل من الطيب والحلال خير من الكثير من الخبيث والحرام. فعلى العاقل أن يختار الطيب والحلال، ولاينظر إلى الخبائث والأرجاس وإن أعجبته واستهوته.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

حاصل الركوعين السابقين التحذيرُ من الغلو والتساهل في الأحكام الدينية، أي لاتحرموا الطيبات التي أحلها الله تعالى، واجتنبوا كل الاجتناب الخبائثَ والحرام، سواء كان بصفة دائمة أو في أحوال وأوقات خاصة. و نبهت هذه الآيات على ضرورة الحذر من الفضول وإثارة الأسئلة البعيدة عما لم يبينه الشارع صراحةً. فكما أن تحليل الشارع وتحريمه مما يحمل في طياته الهداية والبصيرة، كذلك سكوته رحمة وتوسعة. فما أحله الشارع أو حرَّمه فهو حلال أو حرام، وما سكت عنه ففيه توسعة. وتهيأت للمجتهدين فرصة الاجتهاد، وكان العاملون في حرية في فعله وتركه. فلو فُتح باب التدقيق والنقاش والسؤال من غير سبب، والقرآن ينزل، وباب التشريع مفتوح، فربما ينزل – ردًّا على الأسئلة- أحكام تَحرُمُكم ما تتمتعون به من هذه الحرية وسعة الاجتهاد. ثم ما أشد ندامة أن تعجزوا عن القيام بما طلبتموه. ومن سنة الله تعالى أنه لايُكثَر السؤال والتدقيق في شيء من الأمور، وإثارة الاحتمالات من غير داعٍ أنه يزيده شدةً؛ فإن مثل هذه الأسئلة تبين أن السائلين على ثقة تامة بأنفسهم، وأنهم مستعدون دائمًا لأداء أي حكم يكلَّفونه. ومثل هذه الدعوى – التي لاتناسب ضعف العبد وافتقاره- قد تجعله يستحق التشديد من الله تعالى، وكلما ازداد تظاهرًا بأنه مستأهل للاختبار، يشتد الاختبار بقدره. وفعلا حدث ذلك في قصة ذبح بني إسرائيل البقرة. وعن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج، فحجوا»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فقال رسول الله

ﷺ: «لو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم»، ثم قال: «ذروني ما تركتكم»[٢]. وفي حديث، قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إن أعظم المسلمين جرمًا، من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته»[٣]. وعلى كل، هذه الآية تسد الباب إلى أمثال هذه الأسئلة البعيدة من غير حاجة في الأحكام الشرعية. وأما ما جاء في بعض الأحاديث أن بعض الناس كانوا يسألون النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لغو الأسئلة الخاصة ببعض الفروع، فمُنِعوا من ذلك. فلايعارض ما قررناه، فإننا نحمل قوله تعالى: (لاَ تَسْئَلُوْا عَنْ اَشْيَآءَ) على العموم، يعم الواقعات والأحكام جميعًا، كما حملنا قوله: (تسؤكم) أيضًا على العموم.

والحاصل: لاتسألوا فضول الأسئلة لا في الأحكام ولا في الوقائع والأحداث، فإنه قد يسوءكم الجواب عنها، بأن ينزل تكليف شديد أو يضاف قيد شديد أو ظهرت أحداث فضحتكم، أو زُجِرتم على الأسئلة الوقحة؛ فكل هذه الاحتمالات تدخل في (تسؤكم). وأما السؤال عما لابد منه، أو إرادة كشف شبهة ناشئة عن دليل فلا بأس به.

فائدة: أو المراد: عفي عن هذه الأشياء، أي ما دام الله تعالى لم يكلف فيها بشيء، فالإنسان حر في ذلك، فلايؤاخذ الله تعالى عليها. واستنبط بعض علماء الأصول منه أن الأصل في الأشياء الإباحة. أو المراد به أن الله تعالى عفا عن فضول الأسئلة التي سبقت، فخذوا حذركم في المستقبل.

قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾

صح عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: إنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم.

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من شعائر وتقاليد الجاهلية، واختلف المفسرين في شرحها كثيرا، فربما كان يطلق كل كلمة منها على صور مختلفة، ونكتفي بذكر شرح سعيد بن المسيب عند البخاري رحمه الله. قال: البحيرة: التي يمنع درها للطواغيت، والسائبة: «كانوا يسيبونها لآلهتهم لايحمل عليها شيء» كما تترك الفحول من الحيوان في زماننا. والوصيلة: الناقة التي تلد الأنثى خمس مرات إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر. فيتركونها للأصنام. والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت[٤]. وعلاوة على ذلك كانت من شعائر الشرك. فإدخال قيد في إباحة أو تحريم في الانتفاع بلحم حيوان أو لبنه أو ركوبه، يشبه اختراع منصب التشريع لنفسه. وما أظلم أنهم كان يعدون تقاليدهم المشركة هذه مرضاة وتقربا إلى الله تعالى. فرد عليهم

بـأن الله تعـالى لم يـسنَّ هـذه التقاليـد. وإنـما افـترى آبـاؤهم على الله تعـالى، وقَبِلَهـا معظـمُ العامـة الـذين لايعقلون. فنبّه هنا على أن فضول الأسئلة اللاغية التـي تـؤدي إلى التـشديد والتـضييق في الأحكـام الشرعية جريمة، وأعظم منه أن التحليل والتحريم اتباعًا للآراء والأهواء من غير إذن من الشارع.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَـالَوْاْ إِلَىٰ مَـآ أَنـزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَـوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

وأعظم ما يتعلق به الجهلة أنهم كيف يخالفون ما كان عليه آباؤهم؟ فقيل لهم: أتتبعون آباءكم، وإن كانوا وقعوا في حفرة الهلاك بسفههم أو ضلالهم؟ ويقول الشاه [عبد القادر]: فإن علم أن أباه كان متبعا للحق وصاحب علم، ولم يتبع سبيله كان عبثًا، أي لايجوز تقليد أحد تقليدا أعمى كيفما اتفق.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

أي لاتكثر من الحزن على الكفار إن لم يمسكوا عن التقاليد المشركة وعن التقليد الأعمى لآبائهم، رغم كل هذا النصح والوعظ. فإن ضلال أحد لايضرك، إذا استقمت على الطريق المستقيم. وهو أن يلازم المرء الإيمان والتقوى، ويتجنب السيئات ويبذل ما يمكنه بذله في منع غيره عنه. ثم لاضرر عليه إن لم يمسك الناس عن السيئات. ومن الخطإ الفاحش القول – بناء على هذه الآية – بأنه لابأس بأن يتخلف عن الأمر بالمعروف إذا كان أقام صلاته وصومه. فإن كلمة (اهتدى) تشمل جميع أعمال الهداية ووظائفها. وهذه الآية وإن كانت ناظرة إلى المسلمين، ولكنها تتضمن تنبيه الكفار المصرين على تقليد أبائهم تقليدًا أعمى. أي مالكم تلقون بأنفسهم في التهلكة مادام آباؤكم قد ضلوا الطريق. فدعوهم وشأنهم، وأقبلوا على عاقبتكم، وما ينفعكم وما يضركم.

فإن كان الآباء ضالين، واتبع أولادهم سبيلا غير سبيلهم، فإن مخالفة الأولاد لهم لايضرهم على الإطلاق. ومن الجهل الظن بأنه إذن خرج المرء عما كان عليه آباؤه كان وصمة عار وشنار له. وعلى العاقل أن ينظر في العاقبة. فإنه يرى الأولون والسابقون أعمالهم وعاقبتهم حين يمثلون أمام الله تعالى.

فائدة: أي يتجلى لمن ضل، ولمن اهتدى أعمالهم الصالحة والسيئة وعواقبهم.

* * *

الهوامش:

(١) رواه البخاري برقم [١٥٩١].

(٢) رواه مسلم برقم [١٣٣٧].

(٣) رواه البخاري برقم [٧٢٨٩].

(٤) صحيح البخاري برقم [٤٦٢٣].

متى يعود الربيع؟!

بقلم: الأستاذ شريف قاسم

إنَّ العـينَ لتـدمع، وإنَّ القلـبَ ليحـزن، وإن الجوانح لتتفطر أسىً وحسرةً على ما حلَّ بالمسلمين، من نكبات وتقهقر، ومن ضعف وتخاذل، ومن حيرة وقلق، ومن حصار ودمار وقتل وظلم واستعباد، ومن إذعان لقوى الاستكبار العالمي، والسبب لم يَعُد يخفى على أحد، إنه الإعراض عن الإسلام كنظام وأخلاق وتشريع، إنه البعد عن الله القوي الجبار، إنه عدم الاستجابة لله ولرسوله ﷺ.

وبالتالي هو السقوط المريع بين أحضان الكيد الصهيوني والمكر الصليبي، (روى الباسل التركي المغفور له – جواد رفعت ألتخان – أنه بعد اندحار الجيوش العثمانية في كافة الجبهات، وانفراط جمعية الاتحاد والترقي زار القائد جمال باشا أنور بيك في داره الكائنة في أورطة كوى في إسطنبول، وكان جميع رفاقه قد هربوا. وتذاكرا معًا في الهزائم، وحللا أسباب هذه الاندحارات، فقال وزير حربية الاتحاديين أنور باشا وقائد جيوشهم موجها كلامه إلى زائريه: أتعرفون ماهو ذنبنا الحقيقي؟ لقد كان ذنبنا أننا لم نقدّر السلطان عبد الحميد حقَّ قدره، فأصبحنا ألعوبة بيد الصهيونية، واستثمرتنا الماسونية، هذا فظيع جدا، ولكنه واقع مع الأسف. لقد كنا ألعوبة في أيدي اليهودية العالمية)، ظلمات بعضها فوق بعض لا يعرف المسلمون اليوم سبيل رشدهم، ولا أين يتجهون، ولا كيف يتعاملون مع ما يحيط بهم من ظلم وتعسف وحيرة وهوان، وكأنها الجاهلية الأولى التي عاشها الناس قبل مولد الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام، فلتدمع العين، وليحزن القلب بعدما طويت صحائف الخير والعزة، وبعد قلب صفحة الخلافة الإسلامية إلى حيث يشاء الله من زمن، ويعود الربيع فتفرح قلوب وتنتهج نفوس وتغرد ألسنة بذكرى سيد الخلق، ومنقذ البشرية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وشهر ربيع الأول شهر من أحد فصول العام، ولا يهمنا في هذا المقام الصيف بحرِّه، ولا الشتاء ببرده، ولا الخريف برياحه، ولا الربيع بزهوه واعتداله، وإنما الذي يجب أن يعنينا ذلك الربيع القادم من عالم الغيب، ليمنح الأرض ومن عليها قيمه الربانية ومآثره المتلألئة نورًا وهدى وبشرى للعالمين. الربيع الذي أثرى البشرية ببرامج الإصلاح الإيجابية للفرد والمجتمع وللأمة، وللإنسانية جمعاء، وأغنى الخلق بالحقائق التي لاتقبل التزييف والانحراف، الربيع الذي يبارك للإنسان في إيمانه بالله ودأبه في طاعته، وفي إنصافه ومروءته، وفي إتقانه لاستثمار أيام عمره، ليفوز

بالآخرة، ويعمر الدنيا بالإخاء والسماحة والطهارة والعطاء. وفي المنافسة البارة بهذا الإسلام العظيم لاستعادة السيرة النبوية التي أنتجت لأبناء الأمة برامج عملية في العبادات والإعمار، وفاضت على الخلق بالمودة والرحمة. إن الأمة فقدت هذا الربيع الأثير فعاشت اليباب، وعانت من الأكدار، وفتَّ في عضدها الألم:

كأن لم يكنْ بين الحجون إلى الصَّفا
بلى نحن كنَّا أهلها فأبادنا
أنيسٌ، ولم يسمرْ بمكَّةَ سامرُ
هوانٌ تغشَّانا، وغازٍ، وفاجرُ

قبل مولده وبعثته ﷺ كان الناس في جاهلية، جاهلية يميزها العقلاء من البشر، في منافاتها للفطرة السليمة التي فطر اللهُ الناسَ عليها، فالقوة الغاشمة فيها هي صاحبة الحق في الأمر والنهي والتسلط، والفوضى هي مسرح المزايدات والمناقصات في حلبات المكر والخداع والترويج، والكلام للكاذب الأشر، والسكوت للمخلص، من أجل أن يدفع الزور والبهتان الحضورَ الفاعل للرجال الأثبات في المنازلات والمفاصلات. وعلى هذا الامتداد كان للجاهلية الأولى صولتها وكبرياؤُها، وعلى يديها ضاع الحق، وأخوت القيم، وحقَّ يومها للوجود البشري أن يشكو مرارة العيش، وقسرة الواقع، وجفاف القلوب، وتبار المحاولات وتئن الفطرةُ تحت ضربات عبدة الأوثان والشيطان، وتشرئب الأعناق للمنقذ من الضلال، والرائد إذ اضطربت الأحوال ولكن من سيكون؟!

ولتغيير الأحوال أسباب وإرهاصات، وهكذا هي سُنَّة الحياة كانت يومها الأرض مجدبة، والناس في حالة من التوجس والقلق والاضطراب، وكأنهم ينتظرون من يأخذ بأيديهم إلى حيث الطمأنينة والسعادة، وفي تلك الفترة كان المولود المنتظر بين ظهرانيهم لم يتجاوز السابعة من عمره المبارك، واشرأبت العيون وتطاولت الأعناق، وكأن بدايات التغيير تفتَّقت أكمامها، وآن أوانُها، فيأتي أهل مكة شاكين إلى أبي طالب. يروي ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلمَّ فاستسق. فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمسُ دجنٍ، تجلَّت عنه سحابة قتماء، حول أُغيلمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأصبعه الغلام، وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هٰهنا وهٰهنا، وأغدق واغدودق، وانفجر الوادي، وأخصب النادي والبادي، فأنشد أبو طالب:

أبيضُ يُستسقى الغمامُ بوجهه
ثمال اليتامى، عصمة للأراملِ

ذلكم (مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ) رسول الله ﷺ، النبيُّ المنتظر، والمنقذ الذي اجتباه الله واصطفاه من بين خلقه، سقى الله به القوم، وأنعم به على الناس، رعاه الله ليكون خاتم الأنبياء، ومعدن الفضائل والمآثر والأخلاق فهو ﷺ كما وصفه قومه: (بخلال عذبة، وأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة، فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلُقًا وأعزهم جارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وألينهم

عريكـة، وأعفَّهـم نفـسًا، وأكـرمهم خـيرًا، وأبـرهم عمـلًا، وأوفـاهم عهـدًا، وآمـنهم أمانـة، حتـى سـمَّاه قومه الأمين، لِما جمع الله فيه من الأحوال الصالحةَ، والخلال المرضية، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنهـا: يحمـل الكـلَّ، ويكـسب المعـدوم، ويقـري الـضيف، ويعـين عـلى نوائـب الحـق)، فكـان ﷺ مؤهلاً لحمل الرسالة الإسلامية، وكان جديرًا ليقبله الناس يوم اختلفت القبائل على وضع الحجر الأسـود في مكانـه مـن الكعبـة المعظمـة عنـد تجديـد بنائها، حيث اتفقوا على تحكيم أول داخل من باب المسجد، وانتظروا متلهفين، فإذا بالداخلِ (مُحَمَّدُ بنُ عبد الله) ﷺ فهتفوا جميعًا فرحين راضين: هذا هو الصادق الأمين كلنا نحبه ونرضاه.

فبه استسقى القوم، وبه رضوا الحَكَمَ المحبوبَ المقدمَ على سواه، وله شهد الراهب بحيرا بالنبوة، وبنبوته تحدثت الجن، وعليه سلَّم الحجر والشجر، وبـه احتفلـت الأكـوان وازدانـت البلـدان، وبنـوره أشرقـت جنبـات الأرض، واهتـزت عـروش الظلـم والطغيـان، وتهـدم عنـد كـسرى الإيـوان، فهـو النبـي الذي أنزل الله عليه القرآن هدى للناس وبينات من الهـدى والفرقـان، فـأزال ديـاجير الـضلال والإلحـاد، وفتح للناس – كل الناس – أبواب الهداية والإخاء والرخـاء والسُّمُو، فبـشَّر المـؤمنين، وأنـذر الكـافرين، وألغـى طغيـان كبريـاء الظـالمين، وطهَّـرت شريعتُـه القلوب والأبدان والثياب، ليلقى الإنسان ربَّه نظيفًا من الأوزار والأهواء، وزكَّت تعاليمُه ﷺ الأنفس، وسـمت بالإنـسان إلى أعـلى مراتـب الإحـسان.

فاستجاب الـذي هـداه الله لهـذا النـداء، وعـاداه كـلُّ فاجر وآثم ومتكبر لايؤمن بيوم الحساب.

روى البخاري عـن ابـن عبـاس رضي الله عـنهما قـال: لمـا نزلـتْ: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ صعد النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصَّفا، فجعل ينادي: يابني فهر، يابني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجـل إذا لم يـستطع أن يخـرج أرسـل رسـولاً لينظـر مـاهو؟ فقـال للقـوم: «أرأيـتُم لـو أخـبرتُكم أن خـيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتُم مصدِّقي؟» قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقًا. قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذاب شديد»، لقد صدع بالحق، فآمن مَن آمن وفاز، وكذَّب مَن كذَّب فخسرَ وخاب، وثارت ثورة الظالمين أنفسَهم، وكانت السخرية والاستهزاء، وكانـت محـاولات التـشويش والتـشويه، وكانـت المـساومات، وكـان الاضـطهاد والإيـذاء، وكانـت الحرب المعلنة على الإسلام ودعاته وكل من آمن به. وهذا هو قرار أعداء الإسلام في كل الأزمنة والأمكنة على توالي العصور، شأنُهم شأن حمَّالة الحطب زوجة أبي لهـب التـي كانـت تنـشد في نـوادي مكـة: (مـذمَّمًا عصينا، وأمره جافينا، ودينه قلينا)، ولا عجب فتلك حال المستكبرين المتغطرسين المتمثلين بقول فرعون هـذه الأمـة حين قـال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إحـدى المناسـبات: (لا تـستطيع أنـت ولا ربُّـك شـيئًا، وإني لأعزُّ مَن مشى بين جبليها). جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، وغيٌّ يوفي بأهله إلى النار والتبار، وتطاول على سـيد الخلـق رسـول الله رب العـالمين في ذاك الزمـان وفي هـذا الزمـان. وفي مقابـل هـذا الـصف الأرعـن

المكـابر صـفّ المـؤمنين، قِلَّـة كـانوا أم كثـرة، بـإيمانهم المكين ويقينهم بنصر الله لهم مهما طال الزمن، ومهما تطـاول المجرمـون، تحـدثنا سـيرة صـاحب الـذكرى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عـن هزيمـة هـؤلاء المـرجفين أعـداء الله، هزيمـة مدويـة مجلجلـة مـع رئيسهم وصـاحب أباطيلهم وأضاليلهم إبليس لعنه الله وأخزاه، يـوم جاء في صورة سراقة بن مالك بن جعشم يشد أزر المشركين يوم بدر، ويحرضهم على قتال المسلمين، فلما رأى الملائكة تقاتل في صفوف الفئة المؤمنة، فرَّ ونكص، وتشبثَّ به الحارث بن هشام وهو يظنُّه سراقة، وقال له المشركون: إلى أين ياسراقة؟ ألم تكن قلتَ: إنك جارٌ لنا، لاتفارقُنا؟، فما كان من إبليس إلا أن وكز الحارث فألقاه أرضًا، ثم ولَّى هاربًا قائلاً للحارث ومن معه: إني أرى مالاترون. إني أخاف الله، والله شديد العقاب. وظل راكضًا حتى ألقى نفسه في البحر خاسئًا مدحورًا.

فهيهات أن تنفع التحالفات، أو تجدي المكائد والمـؤامرات، إذا أذن الله العزيـز العلـيم الحكـيم بالنصر، ودخل أو عاد الناس إلى دين الله أفواجًا، لقد مرَّت ساعاتٌ عصيبة على صاحب الذكرى ﷺ، وعلى الكتيبة المؤمنة التي بذلت الأرواح والأموال والغالي نصرة لدينه ودفاعًا عن شريعته، ففي معركة أحد كسرت رباعيته، وشجَّ رأسه، فجعل صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يسلت الدم عنه ويقول: كيف يفلح قوم شجُّوا وجهَ نبيَّهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله، إلى الخير والسعادة والعز والمجد والتوفيق لأحسن العمل في الدنيا، والفوز بالنعيم الأبدي في الآخرة، ولكنها النبوة الحريصة على إنقاذ الخلق، الرؤوفة بعباد الله كيلا يذوقوا عذاب الحريق، الرحيمة بالإنسانية لكيلا تتمرد على الله. ولقد اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيِّهم مافعلوا، والله ذو انتقام وأخذ شديد، ولكن الحبيب عليه الصلاة والسلام رفع يديه الطاهرتين الكريمتين إلى ربِّه وهو يقول: (اللّٰهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون) وفي رواية: (اللّٰهم اهد قومي؛ فإنهم لايعلمون)، وهذا السُّمُوُّ العظيم لرسول الله ﷺ مصداقُه وتوثيقُه عند ربِّه جلَّ وعلا، حيثُ قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

هذا هو الربيع الذي افتقدناه، وفقدنا بفقده نفوسًا سمت فوق الأهواء، وقلوبًا سليمة تعالت على كل باطل، ومشاعرَ التهبت بالحب والوفاء والولاء لشريعة الله. فقدنا عندما نأينا عن هذا الربيع ألوية النصر المؤزَّر التي كانت ترفرف على جنبات الأرض، وصيحات التكبير والتهليل التي تتجاوب معها البوادي والمغاني وآفاق الكون الرحيبة، فقدنا معالم الطريق الذي أناره القرآن الكريم، وحقول الرضا والقيم النفيسة في سُنَّة رسولنا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقدنا نسائم الرحمة والقبول التي كان الرجال الأبرار يجدون ريحها من وراء أحد والخندق واليرموك وحطين، وهي تهب ريَّانة بأريج الخلود في جنَّات الخلود، ومن الفردوس الأعلى.

هـذا هـو الربيـع الإسـلامي في مـآثره وفـضائله ومنجزاتـه، وفي آدابـه وأخلاقـه ومعاملاتـه، وفي محرابـه ومعاركـه، وفي قـوة وعـزة أبنائـه ومـروءتهم وشـموخ إيمانهـم وثباتهم في وجـه الأعاصير العاتيـة غربية أو شرقية، محلية أو عالمية.

إنَّ العـين لتـدمع، وإن القلـب ليأسـى أشـدَّ الأسى على ما أصاب الأمة من هذا التَّصحر الذي أوهى القلوب وأقعد النفوس وأخمد توهُّج أسباب العزة بين الصفوف، ومن هذا الوهن الذي عشعش فوق الصدور فأطفأ حرارة الإيمان، وطمس جذوة الـشهامة والرجولـة عنـد أهـل الأهـواء والمـزامير والفجور، وعلى هذه اللامبالاة التي لم يَعُدْ أصحابُها يدركون مدى قوة الأخطار المحدقة بهم وبأمتهم وعقيـدتها الإسـلامية وخيراتهـا المتناميـة الغنيـة ومستقبلها المحفوف بما لاتُحمد عقباه، وعلى هذه المفاسـد والنقـائص التـي بـات فـسَّاقُها وفجَّارُهـا يُكرمون ويُقدمون على أنهم أبطال الأمة ونجومها اللامعـات، ولكـن في أنديـة النذالـة والانحطـاط الخلقي. إنَّ الأمـة التـي تنهـار أخـلاق أبنائهـا بهـذا الشكل المريع، لهي أولى بالتبار والخسران والانهيار، وهـي الأجـدار أن تكـون فريسةً سـائغةً بـين أنيـاب الفناء بعد ضعف وهوان وخذلان.

في شـهر ربيـع الأول مـن كـل عـام تمرُّ ذكـرى مولد نبيِّنا وحبيبنا وشفيعنا رسولِ الله ﷺ، ولكن متى يعـود الربيع الـذي تكتمل فيه شخصية المسلم والمـسلمة بـالعروة الـوثقى، وبـالإيمان الحـق الـذي يحمي المسلم والمسلمة من مفاسد الحضارة الآثمة المادية، وبالتقوى التي تصنع السيرة الحميدة، وتجدد الأعـمال الحميـدة، لتنـدفع الأمـة مـن خـلال أبنائهـا الصالحين وبناتها الصالحات في بساتين هذا الربيع، تحـدوهم الآمـال الرفيفـة إلى اسـتعادة مـا لهـذا الربيـع الرباني من مجد وسؤدد وفخار، يعملون وينتجون، ويخرجـون بالكليـة مـن أسـواق البطالـة البئيـسة إلى ميـادين الإنجـاز وقطـف الثمـرات، فالأمـة مؤتمَّـة برسـولها عليـه الـصلاة والـسلام الـذي أخرجها أول العهد من الظلمات والضلالات، وجاء بها إلى جادة الريادة والقيادة للناس أجمعين، يقول تبارك وتعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وبعودة هذا الربيع الميمون – وهو عائد لا محالة بإذن الله – وأسباب عودته أمانة في أعناق أبناء الأمة جميعًا، تنتهي مزايدات أهل الزيغ والأهواء الذين يبتغون الفتنة بشبهاتهم وتدليسهم على الناس، من خلال نظريات جوفاء واهية لايعرفون مصادرها، وإنما هي تجارة الشيطان، وقد حذَّرنا ربُّنا سـبحانه مـن الاسـتجابة لهـا ولأهلهـا، ودعانـا للاستجابة التي تحيي القلوب، وتعيد المعاني الإنسانية لبني البشر، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً...﴾ ويقول العليم الحكيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

من تـاريخ الجـامعة الإسلامية : دارالعلوم/ ديوبـند

(الحلقة ١١٢)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه اللّه-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

تراجم خريجي دارالعلوم/ديوبند:

١١١- الشيخ نجم الدين الجهيلمي رحمه الله:

من سكان «جهيلم» في «بنجاب»، تخرج من دارالعلوم/ديوبند عام ١٣٣٨هـ، ومكث مدةً طويلةً أستاذًا للغة العربية في الكلية الشرقية/ لاهور. ولقي الصيت الواسع في الأوساط العلمية البنجابية لعلمه وفضله وصلاحه وتقواه، وكان له تمكن من التفسير والحديث بجانب الأدب العربي. توفي عام١٩٥٢م.

١١٢- الشيخ بدر عالم الميروتي رحمه الله:

أصله من مدينة «ميروت»، ولد في «بدايون» عام ١٣١٦هـ/١٨٩٨م، وكان والده الحاج تهور علي مفتشًا في مصلحة الشرطة بها. وتلقى مبادئ العلم في المدرسة الإنجليزية في «إله آباد»، وسمع خلال أيامه الدارسية موعظةً ألقاها حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي فأقبل على طلب العلم الديني، فأرسله والده عام ١٣٣٠هـ إلى الشيخ خليل أحمد الأنبيثوي في «سهارنفور». و أكمل دراسته في مظاهرعلوم/ سهارنفور عام١٣٣٦هـ، وعُيِّن مدرسًا مساعدًا بها عام ١٣٣٧هـ. ولم يلبث أن فارق التدريس وتوجه إلى دارالعلوم/ديوبند للاستزادة من العلم، والتحق بدورةالحديث بها وقرأ صحيح البخاري عام ١٣٣٩هـ على العلامة الشاه الكشميري، ثم قام بالتدريس في دارالعلوم/ديوبند عام ١٣٤٠هـ، وتم تعيينه مدرسًا مساعدًا في أوائل عام ١٣٤٤هـ، وصحب العلامةَ الكشميري إلى الجامعة الإسلامية/ دابيل في أواسط عام ١٣٤٦هـ، فجمع بين التدريس والمواظبة على المشاركة في دروس العلامة الكشميري في صحيح البخاري خمس سنوات، فقام بتدريس علم الحديث بها ١٧/عامًا حتى عُيِّن رئيسًا لهيئة التدريس بها. ثم انتقل من «دابيل» إلى «بهاولفور» نظرًا إلى أوضاعه الصحية.

ورتب في الجامعة الإسلامية/دابيل علوم شيخه العلامة الكشميري ومعارفه في أربعة مجلدات وسماها «فيض الباري على صحيح البخاري»، عرض فيها نوادر تحقيقات شيخه العلامة الكشميري وتفرداته، فظهر بذلك عمل عبقري عظيم.

وانضم في عام١٣٦٢هـ/١٩٤٣م إلى ندوة المصنفين/دهلي، فأسند إليه إعداد موسوعة حديثية

(*) أستاذ الحديث واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

واسعة في اللغة الأردية باسم «ترجمان السنة»، فبدأ هذا العمل بكل عناية، ولم يعدَّ إلا أربعة مجلدات حتى وافته المنية.

بايع الشيخ بدر عالم أولا الشيخَ خليل أحمد الأنبيثوي ثم الشيخ المفتي عزيز الرحمن، وأخيرًا المقرئ محمد إسحاق الميروتي خليفة المفتي عزيز الرحمن رحمه الله، ونال منه الخلافة. وتحول إلى باكستان عام١٩٤٧م بعد تقسيم البلاد. فكلفه العلامة شبير أحمد العثماني أن ينشئ دارالعلوم الإسلامية، فبذل جهودًا جبارةً في إعداد خطة العمل لها، ونجح في استقطاب الأساتذة البارعين فيها. ولم يلبث إلا أعوامًا حتى استهواه الحب النبوي ﷺ إلى المدينة المنورة. فأكب على الأشغال العلمية والعملية في الأرض المقدسة بكليته. وبايعه خلال تواجده في المدينة المنورة كثير من سكان إفريقيا، وانتشرت فيوضه في جنوب إفريقية. وكان الشيخ عابدًا زاهدًا فقيهًا في الدين وصاحب معرفة وفضل. وتوفي بعد مرض طويل في ٥/رجب المرجب عام ١٣٨٥هـ، ودفن في جنة البقيع.

وله – علاوة على «فيض الباري» و«ترجمان السنة»- مؤلفات عدة أخرى، منها «جواهر الحكم» وغيره. ولخص كتاب «زبدة المناسك» للشيخ رشيد أحمد الكنكوهي- وهو كتاب في مسائل الحج-، وسماه «خلاصة المناسك».

١١٣- الشيخ محمد يوسف الشاه الكشميري الشهير بـ«مير واعظ» رحمه الله:

ولد الشيخ محمد يوسف الشاه الكشميري الشهير بمير واعظ في كشمير في ٢٤/شعبان ١٣١٣هـ، وعرفت عائلته في كشمير بـ«عائلة مير واعظ»، وينظر الناس إليها نظرةً ملؤها الحب والاحترام الكبير. وورثت هذه العائلة لقب «مير واعظ» أبا عن جد.

تلقى يوسف الشاه مبادئ العلم على والده الشيخ غلام رسول الشاه الثاني وعلى الشيخ حسين الوفائي، ثم قضى عدة سنوات في دارالعلوم/ديوبند وتخرج منها عام١٣٤٠هـ.

وبعد ما تخرج الشيخ محمد يوسف في العلوم أنشأ مدرسةً دينيةً سماها «الكلية الشرقية» في «سرينغر» بهدف توفير التعليم والدراسة لمسلمي كشمير، الذين يظلون في حضيض الجهل من جراء عدم عناية الحكومة بهم. فيُخَرَّج منها معلمون ومدرسون، ودعاة وخطباء وأئمة المساجد الأكفاء.

وكان الشيخ محمد يوسف بدوره يدرِّس في الكلية. وقامت هذه المدرسة بخدمة العلوم الدينية كثيرا. وكانت تعقد اختبارات اللغة العربية الخاصة بجامعة بنجاب في الكلية الشرقية.

وتفاعل كثيرًا مع حركة الخلافة إبان دراسته في دارالعلوم/ديوبند، فأنشأ في كشمير- علاوة على الكلية الشرقية - لجنة الخلافة عام١٩٢٥م لإيقاظ الوعي السياسي بين الناس. وتحولت جهوده هذه لاحقًا إلى «مجلس التشاور الإسلامي». وأصدر الشيخ مجلةً تصدر على كل ثلاثة أشهر أسماها «الإسلام» بهدف تعزيز صوت المسلمين المتخلفين

في «كشمير». ثم أنشأ صحيفة أخرى سماها «رهنما»، وأقام مطبعة لطباعة الصحف والمجلات.

وسافر الشيخ محمد يوسف لحاجة إلى باكستان في عام ١٩٤٦م قبل تقسيم البلاد، إذ واجه أوضاعًا حالت دون عودته إلى بلده. واختير رئيسًا للحكومة في الجزء الخاضع من كشمير لباكستان بعد مدة قليلة. وقام الشيخ بنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الكشميرية أيام نزوله في باكستان، كما عمل تفسيرًا وجيزًا أيضًا، وكانت هذه أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الكشميرية وأول تفسير فيها، وقد طبع المجلد الأول منه. ويغطي إلى سورة التوبة ترجمةً وتفسيرًا، و رسم الترجمة هو الخط الفارسي.

كان الشيخ مير واعظ يمتاز عن أقرانه من العلماء بمكانته العلمية، كذلك كانت حياته نموذجًا لما كان عليه السلف الصالح في حياتهم العملية من العبادة والرياضة وصدق القول. و لجهوده المخلصة يد كبرى في الوعي الديني والسياسي في أهل كشمير.

توفي في ١٦/رمضان ١٣٨٥هـ - ٧/ديسمبر عام ١٩٦٨م- وهو صائم وقت الإفطار في «راولبندي».

١١٤- الشيخ حبيب الرحمن اللدهيانوي رحمه الله:

ظلت عائلة الشيخ حبيب الرحمن مرجعيةً للعامة والخاصة علمًا وعملًا في «بنجاب». ولازال علماء هذه العائلة يشكلون جبهةً ضد الإنجليز منذ عام ١٨٥٧م، وكانوا في طليعة المساعي الرامية إلى تحرير البلاد. وصبروا لأجل ذلك على المصائب والآلام المختلفة.

ولد الشيخ حبيب الرحمن في ١١/صفر عام ١٣١٠هـ - ٣/يوليو عام ١٨٩٢م- في مدينة «لدهيانه». وتلقى القرآن الكريم والأردية في المدرسة فيها. ثم قرأ في مدارس «نكودر» من أعمال «جالندهر»، و«أمرتسر». والتحق بدارالعلوم/ ديوبند عام ١٣٣٥هـ، وحصل له الولع بفهم القرآن الكريم بمجالسة العلامة الكشميري رحمه الله، وقد استمر ذلك طوال حياته رغم أشغاله السياسية.

وكان مطبوعًا على العلم بالشؤون السياسية، و يشارك في حفلات حركة الخلافة على عهد العلامة شبير أحمد العثماني معه عام ١٩١٩م/ ١٣٣٨م. وشهدت «أمرتسر» في تلك الأيام مجزرة «جليان والا باغ» التي هزت عاطفته نحو تحرير البلاد. واعتقِل أول مرة عام١٩٢١م بتهمة العصيان المدني، ثم استمر قيده وسجنه حتى تحررت الهند.

ونشأ «مجلس الأحرار» في «بنجاب» عام ١٩٢٩م، فانضم إليه، ولم يلبث أن عُيِّن رئيسا لهذا المجلس. وكان الشيخ اللدهيانوي يشارك في مختلف الحركات السياسية بنشاط، وكان على صلة مع جمعية علماء الهند منذ قديم الزمان. واستمر عضوًا لها حتى عام ١٩٥٠م، وانقضت حياته كلها في النشاطات السياسية.

وانقسمت الهند عام ١٩٤٧م فاضطُر إلى مغادرة «لدهيانه»، فصحب غيره من اللاجئين إلى «لاهور»، ثم عاد منها إلى «دهلي» واستوطنها. وقضى عشر سنوات من آخر عمره فيها. وسعى

سعيه خلال ذلك للوحدة الطائفية. وبذل جهوده لتحرير المساجد والأوقاف الإسلامية في بنجاب الشرقية. وكانت خدمة المظلومين والمحتاجين هوايته.

ولم يشهد من عمره إلا ٥٩ عامًا حتى ارتحل إلى الدار الباقية في ١١/صفر ١٣٧٦هـ، ودفن في المقبرة المتصلة بـ«جامع مسجد شاه جهاني».

١١٥- الشيخ المفتي عتيق الرحمن العثماني رحمه الله:

ولد الشيخ المفتي عتيق الرحمن بن الشيخ عزيز الرحمن في ديوبند عام ١٣١٩هـ. وأرخوا لاسمه بـ«ظفر الحق». وحفظ القرآن الكريم وهو ابن تسع سنوات. وتلقى دراسته عن آخرها على أساتذة دارالعلوم/ديوبند. وتخرج منها عام ١٣٤١هـ، وظل مدرسًا مساعدًا فيها ١٣٤٤هـ إلى ١٣٤٦هـ، بجانب الاشتغال في أعمال الإفتاء. وانتقل عام ١٣٤٦هـ إلى الجامعة الإسلامية/دابيل. وقام بالتدريس والإفتاء بها خمس سنوات. واستقال من الجامعة الإسلامية/ دابيل مع زميله الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي لولعه بحركة صنع الملح التي شنَّها حزب المؤتمر الهندي عام ١٩٣٠م، وقام بالتفسير والإفتاء والدعوة والتبليغ خمس سنوات في «كالكوته»، ولقي بها قبولًا واسعًا. ووضع في تلك الأيام خطة دارالمصنفين، حتى نشأت هذه المؤسسة في «كرول باغ» بمساعٍ منه عام ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م. واستهدفت هذه المؤسسة تقديم الخدمات الغالية للعلوم الإسلامية. وقد طبعت ندوة المصنفين إلى الآن أكثر من مئة كتاب في التفسير والحديث والتاريخ واللغة، والأخلاق، والسياسة. كما تصدر ندوة المصنفين جريدةً قيمةً تسمى «برهان».

وظل الشيخ مديرًا لندوة المصنفين وروحها السارية من أول أمرها إلى الآن. ومن أعظم مآثره أنه حافظ على هذه المؤسسة في مهلكة عام ١٩٤٧م؛ بل نفخ بهمته القوية الرجالية الروح فيها من جديد. واستأنف بناء هذه الحديقة المنهوبة.

ويعتبر الشيخ من العلماء والأفاضل البارزين المحنكين في البلاد، وظل عضوًا في كثير من المؤسسات العلمية والدينية. كما أنه عضو في الهيئة الإدارية العليا في جامعة المسلمين في عليكره، ويعتبر اليد اليمنى للشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي في نشاطات جمعية علماء الهند، وعيِّن بعد وفاته القائم بأعمال رئيس الجمعية. ويرأس في هذه الأيام المجلس التشاوري، وظل على صلة بالأعمال الوطنية والدينية منذ أول أمره.

له قدرة متساوية على الخطابة والكتابة. وإن لم يظهر له كتاب مؤلف لاشتغاله في أعمال ندوة المصنفين والشؤون الوطنية والدينية إلا أن الكتب التي أصدرتها ندوة المصنفين تعكس في الواقع مذاقه في التصنيف وحسن تدبيره. وكان من أبرز صفاته الإباء وحرية الضمير، وحرية النفس، وفهم الأمور، والتدقيق في الفقه.

وهو عضو للمجلس الاستشاري بدارالعلوم/ ديوبند منذ عام ١٣٦٨هـ، ويقام لرأيه وزن وقيمة.

* * *

الرد على شبهات كثيرة الورود

بقلم: **الشيخ الكبير المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي**
المعروف بـ«حكيم الأمة» (١٣٦٢هـ/١٩٤٣م)
تعريب: **الأستاذ أبو عبد الله أشرف عباس القاسمي**(*)

الشبهة الخامسة:

صرح الأئمة المجتهدون بأن الأخذ بأقوالهم لايصح إلا إذا كانت الدلائل عليها معلومة للآخذين، فالأئمة الذين تقلدونهم هم بأنفسهم يمنعون التقليد؟

الجواب:

هؤلاء المجتهدون لم يخاطبوا غير المجتهدين الذين لا يملكون قوة الاجتهاد، وإلا يعارض قولهم الأحاديثَ التي تُجوّز التقليد، والتي مرت في المقصد الأول. وأيضًا يعارض فعلَهم وأقوالهم الأخرى كذلك، أما الفعل فإنه لم يثبت عن أحد أن المجتهدين يلتزمون نقل الدلائل في الجواب عن سؤال كل سائل، وكذلك في الفتاوى التي دوّنوها، كالجامع الصغير وغيره. والظاهر أن الجواب لايكون إلا للعمل به سواء كان باللسان أو بتدوينه في الكتاب. فيكون فعلُهم هذا مجوزًا للتقليد.

أما بالقول فإنه حُكي في الهداية وغيره من الكتب عن أبي يوسف رحمه الله تعالى: «ولو احتجم وظن أن ذلك يفطره» لحديث «أفطر الحاجم والمحجوم» ثم أكل متعمدا، «عليه القضاء والكفارة» وعلله أبويوسف بقوله: «لأن على العامي الاقتداء بالفقهاء لعدم الاهتداء في حقه إلى معرفة الأحاديث»(١).

فعلم منه أنه يقول بوجوب التقليد على العامي. فثبت أن ما سبق من قول المجتهدين لايُخاطب به إلا من يملكون قوة الاجتهاد، والتأمل في هذا القول يؤكد هذا القيد؛ فإن قولهم: «ما لم تكن الدلائل معلومة» يدل بدوره على أن المخاطب به من يكون قادرا على معرفة الدليل، والذي لايتمتع بقوة الاجتهاد وإن كان يمكنه سماع الدليل؛ ولكن لا يتمكن من معرفة الدلائل، وتكليف أمثال هؤلاء معرفةَ الدليل تكليفُ مالايطيقونه، وهو باطل عقلا وشرعا. فتبَيّن أن الخطاب موجَّهٌ إلى المجتهد فقط لا إلى غيره.

الشبهة السادسة:

لم يكن التقليد في عهد رسول الله ﷺ ولا في

(*) أستاذ بالجامعة.

عهد الصحابة والتابعين لهم، فهو بدعة؟

الجواب:

قد عُلم في المقصد الأول أن التقليد كان شائعا في القرون المشهود لها بالخير، وإن أراد السائل أن التقليد لم يكن آنذاك بهذه القيود والخصائص؟ فالجواب عنه أن هذه الخصائص والتفاصيل داخلة في الكليات الشرعية كما عُلم في المقصد الخامس فلا تُعد من البدعة. وإلا يلزم أن يكون تدوين الحديث وكتابة القرآن مع الترتيب من البدعة كذلك، وهذه هي الشبهة التي نشأت لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أولا في بادئ الأمر، ثم اندفعت بما وهبه الله من نور القلب. كما سبق بشيء من التفصيل في الحديث الخامس من المقصد الثالث. فكذلك حال ما يتعلق بخصوص التقليد.

الشبهة السابعة:

لم يثبت وجوب التقليد الشخصي عن الكتاب ولا عن السنة فلا شك في كونه بدعة؟

الجواب:

قد مر في المقصد الخامس معنى وجوبه وثبوته بالحديث النبوي الشريف والجواب عن الشبهات الموجهة إليه.

الشبهة الثامنة:

إذا كان التقليد الشخصي واجبا فلماذا تركه السلف قبل الأئمة المجتهدين؟

الجواب:

التقليد واجب بالغير لِما يتوقف عليه من بعض الواجبات المقصودة، فهذا التوقف هو مدار وجوب التقليد الشخصي، ولما لم تكن الواجبات موقوفة على التقليد الشخصي أيامئذ لِما في السلف من سلامة الصدر وطهارة القلب والورع والديانة والتقوى، لم يكن التقليد واجبًاعليهم، وإنما كان مباحًا لهم. وعلى هذا يحمل ما جاء في بعض الكتب من عدم وجوب التقليد الشخصي، يعني أنه مقيد بما إذا أمن الناس الفتنة، والواجبات في العصر الراهن تتوقف على التقليد الشخصي، فيكون واجبا. وهذا القسم من الواجب قد ينقلب انقلابَ أحوال أهل العصر بخلاف الأحكام المقصودة، فإن اعتقاد التغير فيها بتغير العصر والزمان نوع من الإلحاد، كما ابتلي به كثير من الناس في هذه الأيام.

ونظيره أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى أصحابَه عن العزلة وعدم مخالطة الناس ثم أخبر هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدوره بأنه سيأتي زمان، تكثر فيه الفتن والحروب والمحن، فيكون الاعتزال والفرار بالدين مما لا بد منه. وكلا الأمرين مصرح بهما في كتب الحديث. فتجلى من ذلك أنه يمكن أن يوجد هناك أمر لايكون واجبا ولا مباحا في وقت، وفي وقت آخر ينقلب واجبًا لسبب عارض. فلا عجب إذا لم يكن التقليد الشخصي واجبا في أول زمان ثم أصبح واجبا في زمان متأخر.

الشبهة التاسعة:

الاجتهاد بابه مفتوح وليس من قبيل النبوة التي انقطعت، فلا مانع إذا كنا مجتهدين، وإذا كنا مجتهدين فلا يجوز لنا تقليد المجتهدين الآخرين بالاتفاق؟

الجواب:

ليس ببعيد أن يمتلك أحد قوة الاجتهاد عقلا أو شرعا، ولكن يندر وجوده منذ زمن بعيد، ويمكن أن نتأكد من ذلك بسهولة، بأن نختار من كتاب فقهي خالٍ عن الدلائل - مئة سؤال فرعي مأخوذ من مختلف الأبواب الفقهية غير منصوص عليه في الكتاب والسنة، ونكلف من يدعي الاجتهاد أن يَستنبط أحكام هذه المسائل من الكتاب والسنة باجتهاده المزعوم، ويُثبت كذلك تلك الأصول التي سار عليها لاستنباط الأحكام، بالكتاب أو السنة عبارةً أو إشارةً أو بالدليلِ العقلي المقنع، فإذا أتم الجواب، فعند ذلك نقارن بالقسط بين اجتهاد هذا المجتهد المزعوم، وبين أدلة الفقهاء وأجوبتهم، فهنالك يتجلى له مستوى علمه ويتجلى كذلك ما كان عليه الأئمة المجتهدون من مكانة في فهم النصوص، حتى لايعود لمثل هذه الدعوى أبدا- إن شاء الله تعالى.

وقد تحقق لمن له بصيرة أن هذه القوة الاجتهادية فُقدت بعد أربعة قرون. ونظيره أن ما وُهب المحدثون السلفُ من الحفظ وقوة الذاكرة، يندر مثله في عصرنا هذا. فكما أن قوة الحفظ لم تكن من قبيل النبوة؛ ولكنها انتهت، كذلك قوة الاجتهاد لم تكن من النبوة ولكنها انقرضت، والمراد بذلك نفي ملكة خاصة رُزِقَها المجتهدون المعروفون، يستخرجون بها الأحكام في القضايا والنوازل ويمهدون بها أصولًا مستقلة. أما المقارنة بين الدلائل في مسألة أومسألتين وترجيحُ أحد وجوهها أوالوصولُ إلى الحكم بإدراج مسألةٍ فرعية في الأصول المقررة لدى أهل العلم، فلسنا بصدد نفيها، ولا يرتقي بها أحدٌ لدرجة المجتهد المطلق أو الإمام المتبوع. وكذلك شُوهِدَ أنه قد انقلب الزمان فلم يبق في القلوب شيء من الخشية والاحتياط، فلو فرضنا هذه القوة في أحد ومنحناه فرصة الاجتهاد، فذلك يجعله جريئا على أن يقول في الدين كل ما يشاء من الأخضر واليابس.

وأما الآن فهم يأخذون الحيطة والحذر في مراجعة الكتب والإفتاء خشية أن تلحقهم فضيحة مخالفة الكتب.

الشبهة العاشرة:

سهّل الله تعالى القرآن والحديث، حيث قال تعالى: وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (القمر:١٧) فكل شخص يتمكن من فهم القرآن، علاوة على أن القرآن ظهرت له ترجمات باللغة الأردية، فلم يبق القرآن عسيرَ الفهم لأحد، فما هي حاجة التقليد؟؛ وإنما يكفي مراجعة القرآن بدوره،

ثم العمل به؟

الجواب:

قد تبيّن بالحديث الأول مما ذكرناه في بحث القوة الاجتهادية من المقصد الثالث أن القرآن الكريم له معانٍ ظاهرة ومعانٍ خفية دقيقة، ففي هذه الآية أُعتبر القرآن الكريم سهلًا وميسورا بالنسبة إلى المعاني الظاهرة، وأما الاجتهاد فيحتاج إلى إدراك المعاني الخفية والمفاهيم الدقيقة. وبالنظر في بحث المقصد الثالث، يتجلى واضحًا مدى ما يحتاج إليه من الفهم والذكاء.

الشبهة الحادية عشرة:

جاء في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ[٢]. وأما التقليد الشخصي فهو يسبّب العسرَ والصعوبة لِما يحمله من قيود، فالتقليد معارض لطبيعة الدين؟

الجواب:

اليسر في الدين لا يعني أن لا يشق العمل به على النفس، وإلا فلا معنى لقوله تعالى: وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ[٣] ولقول رسول الله ﷺ: حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، متفق عليه. وهذا مما تأباه المشاهدة، ألاترى أن الصائم في رمضان يحمل من المشقات؟ وأن النفس تواجه في الشتاء متاعب البرودة في الوضوء؟ وألا ترى أن النائم يهرول إلى الصلاة رفضا للنوم مع شدة الرغبة فيه، أليس هذا من الواجبات التي تستصعبها النفس؟

وإنما معنى الحديث أن الله لم يجعل في الدين شيئا خارجا عن طاقتهم البشرية قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا..﴾[٤].

فكذلك التقليد الشخصي سهل ميسور بهذا الاعتبار، فلا يخالف الدين. ولما حققنا وجوبه في المقصد الخامس بصورة مستقلة، فلا احتمال أن يكون مضادًّا للدين.

الشبهة الثانية عشرة:

ولو سلمنا ثبوت التقليد، فالصحابة الكرام ولاسيما أبو بكر و عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أولى بالتقليد والاقتداء بهم من الأئمة الأربعة، فلماذا فضّلتموهم على هؤلاء الصحابة الأخيار؟

الجواب:

تحقَق فيما سبق أنه لابد للتقليد من كون المذهب مدوَّنا محققا، وما عهدنا من الصحابة الكرام أحدا يكون مذهبه مدوَّنا، فالعذر متحقق، نعم: نتبع كذلك الصحابة الكرام عن طريق تقليد الأئمة الأربعة.

الشبهة الثالثة عشرة:

هل يجب التقليد فيما نص عليه الكتاب والسنة؟

الجواب:

المسائل ثلاثة أنواع:

الأول: ما تعارضت فيه النصوص.

الثاني: ما لم تتعارض فيه النصوص؛ ولكنه

يحتمل معاني ووجوها، نعم، تختلف معانيه قريبة وبعيدة باختلاف قوة النظر.

الثالث: ما لا تعارض فيه، وإنما يتعين معنى واحد في المراد.

فالقسم الأول يحتاج فيه المجتهد إلى الاجتهاد والمقلدُ إلى التقليد دفعًا للتعارض، وأما القسم الثاني فهو ظني الدلالة، ولا بد فيه من الاجتهاد والتقليد كذلك ليتعين أحد الوجوه المحتملة. والقسم الثالث قطعي الدلالة فنحن أيضا لانرى في ذلك جواز الاجتهاد ولا جواز التقليد.

الشبهة الرابعة عشرة:

بعض المسائل تعارض الأحاديث برمتها، فلماذا تقلدون فيها؟

الجواب:

الحكم بأن المسألة تخالف الحديث يتوقف على ثلاثة أمور:

الأول: أن يكون لديه علمٌ صحيح بما يراد بالمسألة.

الثاني: أن يكون لديه معرفة بالدليل عليها.

الثالث: أن يكون عالمًا بوجوه الاستدلال. فإنه لوخفي عليه أحد الثلاث أخطأ في الحكم بالمخالفة. مثلاً: لقد عُرف من قول الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى أن صلاة الاستسقاء ليست بسنة، وظاهره معارض للحديث، فإنه قد ورد في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى للاستسقاء. ولكن مراد أبي حنيفة أنه ليس في الاستسقاء صلاة مسنونة مؤكدة في جماعة؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تارة صلى للاستسقاء، وتارة استسقى على المنبر ونزل ولم يصل للاستسقاء.كما روى البخاري ومسلم عن أنس قال: بينَما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخْطُبُ يومَ الجُمُعَة، إذْ قَامَ رَجُلٌ، فَقالَ يا رَسولَ اللَّه: هلَكَ الكُرَاعُ، وهلَكَ الشَّاءُ، فَادْعُ اللَّه أنْ يسْقِينَا، فَمَدَّ يدَيه ودَعَا(٥).

وكون هذا مرادا لأبي حنيفة يُعلمُ بما ذكره صاحب الهداية الإمام المرغيناني، حيث قال: قلنا فعله مرة وتركه أخرى فلم يكن سنة، فبعد ما يتجلى المطلب الصحيح، لايبقى مجال لشبهة المخالفة.

وكذلك لو خفي الدليل، مثلاً وردت الأحاديث المختلفة في مسألة فرعية، فرأى أحد حديثًا دون حديث وحَكَم بمخالفة الحديث، مع أن المجتهد استدل بالحديث الآخر وأوّلَ هذا الحديثَ، كما وردت الأحاديث المختلفة في مسألة القراءة خلف الإمام. أو هناك حديث واحد يحتمل وجوها عديدة، واستدل المجتهد به ذاهبا إلى ترجيح بعض وجوهه بقوة اجتهاده، ولايعتبر ذلك مخالفة للحديث.

مثال ذلك أنه ورد في الحديث رَوَى أَبُو سَعِيدٍ، قَالَ: سَمِعْت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقُولُ: «إذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يصَلِّي إلَى شَيءٍ يسْتُرُهُ مِنْ النَّاسِ، فَأَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يجْتَازَ بَينَ يدَيه، فَلْيدْفَعْهُ، فَإِنْ أَبَى فَلْيقَاتِلْهُ، فَإِنَّمَا

هـوَ شَـيطَانٌ». مُتَّفَـقٌ عَلَيـه. وَرَوَاهُ أَبُـو دَاوُد، وَلَفْـظُ رِوَايتِهِ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يصَلِّي فَلَا يدَعْ أَحَدًا يمُرُّ بَينَ يدَيْهِ، وَلِيدْرَأْهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنْ أَبَى فَلْيقَاتِلْهُ، فَإِنَّمَا هوَ شَيطَانٌ»(٦).

فهـذا الحـديث يحتمـل الـوجهين: أن يكـون محمولا على الحقيقة، أو محمولا على الزجر والسياسة نظرًا إلى الـدلائل الكليـة الأخـرى؛ فـإنْ أخـذ مجتهـد بالوجه الثاني فأنى يلزمه المخالفة؛ فإن عمله ليس إلا بوجه من الوجوه التي يحتملها الحديث.

وكـذلك لايجـوز لـو خفـي طريـق اسـتدلال المجتهـدعلى أحـد، فقضى على المجتهـد بأنـه خـالف الحديث. كما حكي عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى أن مدة الرضاعة ثلاثون شهرًا، والدليل المعروف على ذلك هو قوله تعالى: وَحَمْلُـهُۥ وَفِـصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُـونَ شَهرًا ۚ (الأحقاف:١٥). ولكن طريق الاستدلال بها – على ماهو المعروف– فيه وهن شديد. وحكي في المدارك عن أبي حنيفة تفسيره بالأكف، فقال: وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: المراد به الحمل بالأكف(٧). وبهذا التفسير تندرئ الشبهات الكثيرة. فإذن معنى الآيـة أن حَمْـل الرضـيعِ بـالأكف والأيـدي بعـد مـا وضعت المرأة حملها وفطامَه، ثلاثون شهرًا، والآن ثبـت الـدعوى دونـما تـردد. والحاصـل أن الحكـم بالمخالفة لايليق إلا بمن كان متبحرا في الروايات وحاذقا بـصيرا بالـدرايات. ومـن كـان يوجـد فيـه صـفات منهـا دون صـفات، فـلا عـبرة بحكمـه بالمخالفة إطلاقًا، ولا يعبأ به. كما تبين في المقصد الثالـث أنـه لايجـب أن يكـون كـل حـافظ للحـديث مجتهـدا، ويـدرك بـذلك كـل رجـل عـادل أن حفـاظ الحـديث إذا لم يتمكنـوا مـن وجـوه الاسـتنباط، ولم يتعرفـوا عليهـا، فـما ذا تـرى عـن هـؤلاء الجهلـة المـساكين في عـصرنا هـذا – فـإذنْ مـا أعظـم جـرأة وشناعة إذا تجرأ هؤلاء على الحكم بمخالفة الحديث دونما هوادة – هداهم الله تعالى و أصلح شأنهم.

فهـؤلاء العلـماء المتبحـرون إذا وجـدوا قـولًا لايؤيـده الـدليل، تركـوه، كـما يوجـد التـصريح في الكتب الحنفية بترك قول أبي حنيفة رحمه الله تعالى في مسألة حرمة قدر قليل من المسكرات و جواز المزارعـة. ولكـن هـذه الأقـوال لاتكـاد تـصل إلى عـشرة، فقـد تتبعـتُ مثل هـذه الأقـوال بـشيء مـن التفصيل فما جاوزتْ خمسة أو ستة آراء كـان فيهـا شيء في قلبي، أما ما سوى ذلك فما وجدت حكمًا مخالفا للحديث، وقمت بضبط وجوه الانطباق في رسالة؛ ولكن ضاعت.

ومع ذلك يحرم إساءة الأدب إلى المجتهد؛ لأنه لم يخالف بتعمدٍ وقصد منه، وإنما أدى إليه اجتهاده خطـأً، يرجـى فيـه الأجـر بـما ورد في الحـديث: عـن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إذا حَكَمَ الحاكِمُ فاجْتَهدَ ثُمَّ أصابَ فَلَه أجْرانِ، وإذا حَكَمَ فاجْتَهدَ ثُمَّ أخْطَأَ فَلَه أجْرٌ(٨).

فـإن قيـل: إن الـدعاوي والأدلـة وطـرق

الاستدلال كلها موجودة في الكتب المتداولة، فيسهل إدراك الموافقة والمخالفة بالنظر فيها؟

فالرد عليه أن الدعاوي محكية عن صاحب المذهب؛ ولكن لم يكن دأبهم نقلَ الحجج وقت تدوين الأحكام، فالبراهين والدلائل غير محكية عنهم، وحرر المتأخرون بعض الأدلة للإقناع وفق نظرِهم وفهمهم، فإن كانت الحجة ضعيفةً أو وجه الاستدلال سخيفا، فلايلزم منه بطلان المدلول، فقد صُرّح في كتب فن المناظرة بأن بطلان الدليل لايستلزم بطلان المدلول والحكم؛ لأنه يمكن أن يكون لدى المدعي دليل صحيح غير هذا. ولاسيما إذا لم ينقل الدليل الذي ورد النقض عليه عن المستدِل بنفسه. كما مر في الاستدلال بقوله تعالى: وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ [٩].

فهذا هو العذر من قِبلِ المجتهد، أماالمقلد فالحديث الذي يبدوظاهره معارضًا للحديث، إن كان يحتمل التأويل فلا يجب عليه رفض قول المجتهد.

الشبهة الخامسة عشرة:

ما هو وجه تخصيص هؤلاء الأربعة من بين الأئمة المجتهدين مع كثرتهم؟

الجواب:

مر الجواب في المقصد الخامس من عدم تدوين مذاهب الآخرين، فالعذر ظاهر.

الشبهة السادسة عشرة:

ادعى البعض الإجماعَ على حصر المذاهب في الأربعة، مع أن طائفة من العلماء الذين خالفوا حصر المذاهب، ظلت تتواجد في كل عصر؟

الجواب:

المراد بالإجماع إما اتفاق أكثر الأمة، ومثل هذا الإجماع وإن كان ظنيا لكن يكفي لإثبات الدعوى الظني، وإما لم يوضع تلك الطائفة في اعتبار، وسبق في بحث المقصد الخامس أن كل اختلاف لايُعد قادحا للإجماع.

هذا ولما ثبت الحصر بالدلائل في المقصد الخامس، فلا ضرر إذا لم يثبت الإجماع.

الشبهة السابعة عشرة:

لو سلمنا وجوب التقليد الشخصي فعامة الناس لايعرفون الإمام أبا حنيفة؛ فكيف يمكنهم الاتباع؛ فإن الاتباع لايتحقق بدون معرفة المتبوع؟

الجواب:

المعرفة عامة تشمل المعرفة التفصيلية والإجمالية، فبعضهم وإن كانوا لايعرفون الإمام معرفة تامة، ومن هنا قال بعض العلماء: العامي لامذهب له، ولكنهم يعرفونه معرفة إجمالية، فإنهم لايتبعون عالما إلا ظنا منهم أنه هو يتبع ذلك المذهب الذي يتبعه الناس في تلك الديار. ألا ترى أن ذلك العالم إذا ترك تقليد ذلك المذهب، تركه الناس. فمعرفة المذهب الخاص معرفة صاحبه من وجه، وتكفي هذه المعرفة اتباعا، كماتجب طاعة أمير المسلمين في عهده، وهذه الطاعة تتوقف على

المعرفــة، ولايعرفــه ألــوف مــن عامــة المــسلمين بالتفصيل. والسر في ذلك أن المقصود بالطاعة - وهو جمع كلمتهم وعدم تفرقهم - يحصل بالمعرفة الإجمالية، فاكتُفي بها، وكذلك المطلوب من التقليد الشخصي هو أن لاتثور الفتن ولا يعم اتباع الهوى، وهذا يتحقق بدون المعرفة التفصيلية فتكفي المعرفة الإجمالية.

الشبهة الثامنة عشرة:

يتمسك الحنفية في أكثر الأحيان بأحاديث ضعيفة وغير ثابتة، أما الآخرون فلديهم أحاديث قوية وحججٌ راجحة، فلماذا تنبذون الراجح وتعملون بما هو المرجوح؟

الجواب:

قولهم بأن أكثر حجج الحنفية ضعيفة، غير سديد، فإنهم يستدلون في كثير من المسائل بأحاديث الصحاح، كما لا يخفى على من له إلمام بكتب الدلائل، والأحاديث التي من غير الصحاح، أغلبها صحيحة على ما تقرر لدى المحدثين من القواعد، فإنه لايلزم حصر الأحاديث الصحيحة في الكتب الستة أو حصر الصحاح الستة في الأحاديث الصحيحة. كما هو المعروف لدى أهل العلم. وأما الأحاديث التي ضعّفها المحدثون، فالقواعد التي بنى عليها المحدثون ضُعفَها،- والتي أهمها هو ثقة الراوي وضبطه- ظنية، ولذلك اختلف في بعضها المحدثون أنفسهم، وكذلك كون الراوي ثقة أو غير ثقة عماده الظن. وتقديم الجرح على التعديل مشروط بقيود كثيرة ولا يجب اجتماعها في كل مكان كما يتجلى من كتب الفن. ولذلك اختلف المحدثون في كثير من الروايات تضعيفا وتصحيحا، فلما كانت الأصول ظنية فليس من الضروري أن تكون حجة على الجميع، ولا مجال للطعن في الفقهاء لو حددوا القواعد للترجيح بين الأحاديث على أساس من الدليل، كمافي كتب الأصول. فيمكن أن لايكون الحديث صالحًا للاحتجاج على قواعد المحدثين، ويكون صالحًا على قواعد الفقهاء. هذا إلى أن ضعفه قد ينجبر بانضمام القرائن. كماهو مصرَّح به في فتح القدير في بحث عدد تكبيرات الجنازة.

وثانيا: ليس ضعف الحديث صفة أصلية له، وإنما يتطرق إليه الضعف لأجل ضعف الراوي، فيمكن أن يصل الحديث إلى المجتهد بسند صحيح، ثم يدخله راوٍ ضعيف، فلا يضر الضعف المتأخر المستدِلَ المتقدمَ. ولوحدثت الشبهة في ضرره لاستدلال المقلد المتأخر فنقول أولًا: إن المقلد يأتي بالبرهان تبرعا، وإنما يستدل هو بقول المجتهد. وثانيا: إذا تم استدلال المجتهد بهذا الحديث، واستدلاله يتوقف على صحة الحديث، فكأن المجتهد صحح الحديث، وهذا معنى قول العلماء: المجتهد إذا استدل بحديث كان تصحيحا له منه» فالحديث وإن لم يكن سنده معلوما؟ لكنه أصبح لدى المقلد حديثا صحيحا مثل تعليقات البخاري،

فلايضر الاستدلال به.

وأماالــسؤال عــن الــدليل عــلى أن المجتهــد متمسك بـه؟ فـالجواب عنه أن موافقة قولـه وعملـه هـذا الحـديثَ مظنة تمسكه بـه. كـما حكـي في حاشـية النسائي قول ابن الهمام: قول الترمذي: «العمل عليه عند أهل العلم» يقتضي قوة أصل الحديث وإن كان طريقه الذي أورد به ضعيفا».

والظـاهر أن الاقتـضاء يتحقـق إذا سُـلّم أنـه تمسك بهذا الحديث، فثبت ظن التمسك، والمقدمات الظنيـة تكفـي في المـسائلَ الظنيـة. أمـا كـون الحـديث غيرثابت فمثل هذه الأحاديث اكثرُها رواية بالمعنى، وقـد توجـد لهـا شـواهد في الحـديث الآخـر، ويعلـم ذلك بكتب التخريج.

وثالثًا: بطلان الدليل لايستلزم بطلان المدلول والحكـم، كـما مـر في الإجابـة عـن الـشبهة الرابعـة عشرة، فإنه يمكن أن يكون استدلاله بدليل شرعي معتبر سوى هذا الدليل كالقياس، فلايكون ضعف الحـديث الخـاص أو عـدم ثبوتـه قادحـا ومـضرا لــدعواه. وإن تحقــق أن المــسألة خاليــةعن حجــة معتبرة، وتخالف الحديثَ الصريح كل المخالفة، فقد مـر الجـواب عنـه مجمـلا في الـشبهة الرابعـة عـشرة وسيأتي بشيء من التفصيل في المقصد التاسع بمشيئة الله تعالى.

الشبهة التاسعة عشرة:

التقليـد لايكـون إلا للمجتهـد، والإمـام أبـو حنيفـة لم يكـن مجتهـدا؛ لأن مـن شروط المجتهـد أن يكـون عارفًـا بالأحاديـث الكثـيرة، وقـال بعـض المؤرخين: يقال: إنه لم تبلغه إلا سبعة عشر حديثا أو نحوها، وكذلك ضعّفه البعض في رواية الحديث، فلا يوثق بمسائله ولا يعوَّل على روايته؟

الجواب:

المؤرخ -ابن خلدون- الذي حكى أنه لم تبلغه إلا سبعة عشر حديثا، يقول بنفسه في شأن الإمام وقال: ويدل على أنه كان من كبار المجتهدين في علم الحـديث اعـتمادُ مذهبـه بيـنهم، والتعويـلُ عليـه، واعتمادُه ردا وقبولا»(١٠).

فلـما وجـب كـون المجتهـد محـدثًا - والواقـع كذلك - وثبت كون الإمام مجتهدا بقول هذا المؤرخ فلاجرم أن يثبت كونـه محـدثًا كـما هـو الظـاهر؛ لأن وجـود الملـزوم يـستلزم وجـود الـلازم. أمـا مـا كتبـه المؤرخ من القول الذي يخالفه ما حققه بنفسه، فإما أنه أخطأ هو بنفسه أو الناسخ أو الحاكي عنه، أو ابن خلـدون لم يُقـر الـرأي القائـل بـأن أبـا حنيفـة بلغـت روايته من الأحاديث سبعة عشر حديثا فقط؛ لذلك بدأه بكلمة «يقال» وهي صيغة من صيغ التمريض تفيـد الـشك. هـذا إلى أن هـذا القـول يأبـاه العقـل والنقل، إن لم يؤوّل فهو باطل أصلًا. والمؤرخ ليس مـن مهـرة العلـوم الـشرعية - كـما صرح بـه الحـافظ شمس الدين السخاوي في ترجمته في الضوء اللامع (١٤٥/٤)- فلا عجب منه صدور مثل هذا القول

الباطل فيما تعنيه العلوم الشرعية. أما كون هذا القول خلاف النقل فإن من قرأ الموطأ وكتاب الحجج وكتاب الآثار والسير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني وكتاب الخراج للإمام أبي يوسف ومصنف ابن أبي شيبة ومصنف عبد الرزاق وكتب الدار قطني والبيهقي والطحاوي واستخرج منها جميع المرويات من طرق مرضية لأبي حنيفة، اتضح له كذب هذا القول وضوحَ الشمس في رائعة النهار. وأما كونه مخالفًا للعقل فإن الإمام أبا حنيفة من أتباع التابعين فيما ذهب إليه بعض المحدثين كالحافظ ابن حجر العسقلاني في قول منه، أو من التابعين فيما ذهب إليه الخطيب البغدادي والدار قطني وابن الجوزي والنووي والذهبي وولي الدين العراقي وابن حجر المكي والسيوطي والعسقلاني في قول منه وغيرهم من المحدثين. فالذي يقرب عهده من عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا القرب، وصادف عصرا شاع فيه العلم وساد الدين، فكيف يجوّز العقل أنه لم يبلغه إلا سبعة عشر حديثا؟ وقد صرح المؤرخ بنفسه في مفتح تاريخه أن الأمور التاريخية لابد أن توزن بميزان العقول، فما خالف البراهين العقلية، يُرفَضُ عند أرباب العقول. فاندفعت الشبهة في كون الإمام غير مجتهد بحذافيرها.

وأمّا توثيقُه في روايات الحديث؛ فذكر الذهبيُّ في «تذكرة الحفاظ»: أنّ يحيى بن معين قال فيه: لا بأس به لم يكن متّهمًا. انتهى. وهذا اللفظ من ابن معين رئيس النقّاد قائمٌ مقامَ: ثقة، صرّح به الحافظ ابن حجر وغيره.

وذكر ابنُ عبد البر عن علي بن المَديني: أبو حنيفة روى عنه الثوري وابن المبارك، وحماد بن زيد، وهشام، ووكيع، وعباد بن العوام، وجعفر ابن عون، وهو ثقة لا بأس به، وكان شعبة حسن الرأي فيه، وقال يحيى بن معين: أصحابنا يفرطون في أبي حنيفة وأصحابهِ، فقيل له: أكان يكذب؟ قال: لا».

فبعد ما صرح به هؤلاء الكبار من المحدثين النقاد، لم يبق مجال للريب في بطلان تضعيف الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى.- وهذا كله ملتقط من مقدمة عمدة الرعاية للشيخ مولانا عبد الحي اللكنوي رحمه الله تعالى-.

* * *

الهوامش:

(١) الهداية في شرح البداية ١/١٢٧. باب ما يوجب القضاء والكفارة.
(٢) رواه البخاري (٣٩) ، ومسلم (٢٨١٦).
(٣) البقرة – ٤٥.
(٤) البقرة:٢٨٦.
(٥) أخرجه البخاري (٩٣٢)، ومسلم (٨٩٧).
(٦) الهداية ١/٨٧، باب الاستسقاء.
(٧) مدارك التنزيل ٤/١٣٨.
(٨) صحيح البخاري:الرقم: ٧٣٥٢.
(٩) الأحقاف – ١٥.
(١٠) مقدمة ابن خلدون (١/٤٥٥).

* * *

بين الناسخ والمنسوخ

بقلم: الأستاذ/ أسعد قاسم السنبهلي القاسمي(*)

الناسخ والمنسوخ عنوان قيم، يمتاز بين البحوث والموضوعات، بما طال ذيله، وتشعب فرعه، و كثر مذهبه، كما يكشف اللثام عن سير التشريع الإسلامي، ويُعرِّف القراء بأن مطالب أمة، تختلف عن مطالب أختها، وما يلائم قومًا في عصر قد لا يلائم الآخر في غيره، وأسلوب الدعوة في طور النشأة والتأسيس يختلف عن شرعتها بعد البناء والتكوين، فلا غرابة في أن ينزل حكم يوافق أمة، ثم يرفع عن أمة أخرى مراعاة لطبيعتها ومصالحها، وذلك مما يدل على ثبات الأمر، وقوة الدين، وصحة الأحكام، التي وردت أدلتها مختلفة متعارضة، يندفع منها الخلاف والتعارض بمعرفة سابقها من لاحقها، وناسخها من منسوخها، وهو بحث دقيق عني به العلماء عناية بالغة، حتى لم يسمحوا بالتفسير والتأويل لمن لا يعرف الناسخ والمنسوخ، كما روي عن سيدنا علي بن أبي طالب أنه مر على قاص فقال: أتعرف الناسخ والمنسوخ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت[1] وفي قصة أخرى دخل رضي الله عنه المسجد، فإذا رجل يُخوِّف الناس، فقال: من هذا؟ قالوا: رجل يُذِّكر الناس، فقال: ليس برجل يُذِّكر الناس، ولكنه يقول: أنا فلان بن فلان، فاعرفوني فأرسل إليه فقال: أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا، قال: فاخرج من مسجدنا، ولا تُذِّكر فيه[2] أي لا يجوز لأمثاله التذكير بتفسير القرآن و تأويله.

ونظرًا إلى أهميته الزائدة صنف فيه العلماء كثيرًا من الكتب والمؤلفات في القرون الأولى والمتوسطة، وعلى رأسهم أبو عبيد القاسم بن سلام (م٢٢٤هـ)، وقتادة بن دعامة السدوسي (م١١٧هـ)، والإمام أبوداود السجستاني (م٢٧٥هـ)، وأحمد بن محمد بن إسماعيل أبو جعفر النحاس (م٣٣٩هـ)، وهبة الله بن سلام المقري (م٤١٠هـ)، و علي بن أحمد بن حزم الظاهري (م٤٥٦هـ)، والعلامة ابن الجوزي (م٥٩٧هـ)، وهبة الله بن عبدالرحيم بن إبراهيم (م٧٣٨هـ) وغيرهم من كبار العلماء وأعلام التفسير.

هذا، و لم يزل الملاحدة المستشرقون يتخذون موضوع النسخ في كل من القرون سلاحا مسموما، يطعنون به في صدر الإسلام، وينالون من حرمة

(*) رئيس قسم الإفتاء و الأدب العربي بجامعة الشاه ولي الله مرادآباد الهند.

القـرآن، ويثـيرون مـن المطـاعن والـشبهات، التـي تخالج مرضى العقول، وضعاف القلوب، وزائغي العقائد و التفكير.

فالنسخ: لغة: الإزالة، كقوله تعالى: فَيَنْـسَخُ اللَّه مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِـمُ اللَّه آيَاتِـه وَ اللَّه عَلِـيمٌ حَكِـيم[٣]، يقول العرب: نسخت الشمس ظلها، أي أزالته و نسخت الريح أثر المشي، ومنه تناسخت القرون والأزمنة لمضيها وانقضائها، ذلك المعنى يتبادر ظاهرا من كلمة النسخ وهو الراجح القوي لدى العلماء، بالنسبة إلى المعاني الأخرى التي لا تجدر بنقلها وشرحها، لأنها تزعج الأفكار، وتقلق الأذهان، وأما معناه اصطلاحا فهو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي، وهنا التعريف أصح وأقرب، يوافق لدى العلماء نصوص الكتاب، وألفاظ الحديث، وآثار الصحابة والتابعين، خرج منه بكلمة «رفع» ماليس برفع من التخصيص، الذي لا يرفع الحكم؛ بل يقصره على بعض أفراده، وقولهم «الحكم الشرعي» خرج به عن النسخ ما كان معدوما قبل ورود الشرع، كبراءة الإنسان من امتثال الأوامر، ولما نزل الشرع نسخها و كلفه أداءها، و لكن مع ذلك ليس هو منسوخا؛ لأن البراءة كانت حكما عقليا، لا شرعيا، وقولهم: «بدليل شرعي» خرج بذلك عن النسخ رفع الحكم الشرعي بدليل عقلي كسقوط التكليف عن الإنسان بغفلته أو جنونه أو موته، فإن الغافل، والمجنون والميت لا يعقل كلهم خطاب الله، حتى يستمر تكليفهم، لأن الله – سبحانه وتعالى – إذا أخذما وهبه سقط ما أوجب عليه، كما روي عن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق»[٤] ولذلك يشترط له ما يلي.

(١) أن يكون المنسوخ حكمًا شرعيًّا، يقع في كتاب الله أم في سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولا وفعلا، وصفة وتقريرًا، ولا يكون ذلك عقليا كنسخ براءة الإنسان بنزول الشرع فليس هو بمنسوخ.

(٢) أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم خطابا شرعيا يرد في الكتاب، أم في السنة على اختلاف العلماء كما يجب أن يكون متراخيا عن الخطاب حكمه، وذلك يتفرع إلى ما نذكر من أقسام النسخ: نسخ القرآن بالقرآن، ونسخ السنة بالسنة، ونسخ القرآن بالسنة.

(٣) أن لا يتصل الدليل الرافع بالخطاب المرفوع اتصال القيد بالمقيد، والتأقيت مع المؤقت، مثل (ثم أتمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَيل)[٥] فقوله «إلى الليل» غاية، تفيد انتهاء حكم الصوم بمجرد دخول الليل، والثاني: (فَاعْفُواوَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّه بِأَمْرِه إِنَّ اللَّه عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[٦] إن حكم العفو والصفح هنا موقت بفترة يأتي الله فيها بأمره، فتانك الآيتان محكمتان لامنسوختان.

وبعد شرح النسخ لغة واصطلاحا يجب أن

نشير إلى أن النسخ لا يجري إلا في أحكام العبادات، وفروع المناكحات والمعاملات، أما العقائد والوعد والوعيد، وقصص الأنبياء، وأخبار الأمم، وأصول العبادات، وأمهات الأخلاق والآداب، فلا يجري فيها النسخ، لأنها من الدين، وهو واحد لم يختلف منذ أن هبط سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام حتى بعث النبي الخاتم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غير أن الشرائع لم تزل يطرأ عليها النسخ والتبديل حسبما اقتضت الطبائع والظروف، كتزويج بنات آدم مع أبنائه، لما قام اختلاف البطون فيهم مقام الاختلاف في الآباء والأمهات، وتحليل الدواب كلها لسيدنا نوح ومن معه بعد استواء السفينة على الجودي، والجمع بين الأختين في شريعة إسرائيل، وتشريع الطلاق في عهد سيدنا موسى، وتحريمه لدى ابن مريم؛ إلا إذا ثبت فعل الزنا على الزوجة، وتحريم كثير من الحيوان على بني إسرائيل، بعد أن كان حلالا فيمن كان قبلهم، كما قال الله عز وجل وعلا: (وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ)(٧) ذلك كله يدل دلالة واضحة على أن النسخ جائز عقلا وواقع سمعا، ولا غرابة فيه لدى الأولين والآخرين، ولكن أنكره اليهود مع اعترافهم بهذه الأمثلة، واعتقادهم بأن شريعتهم ناسخة لما قبلها من الشرائع، قائلين: إن النسخ ممتنع شرعا وعقلا، لما يستلزم في زعمهم «البداء» الذي يستحيل على الله لظهور الأمر بعد خفائه وصدوره من سبق الجهل، وحدوث العلم، ولو تعمق الدارس فيما استدلوا به تجلى له واضحا ملموسا أنهم على الخطأ في الرأي و الزيغ في التفكير، فإنه بداء في حق العباد لا في حق الله، إنه خالق الكون يعلم ما كان، وما هو كائن، وما هو سيكون، وكانت الأسرار والحِكم التي شملها النسخ معلومة مقررة لدى الله من قبل، فلم يتجدد بها علمه، يصرف في ملكه ما يشاء، ويقلب الليل والنهار، ويغير الفصول حينا بالصيف، وآخر بالشتاء، وثالثا بالخريف، أذلك بداء لديهم أم حِكم ومصالح؟ أجراها الله تعالى مراعاة لمصالح العباد، ولا يشوبها الجهل وحدوث العلم، ألم ير اليهود طبيبا، يعالج مرضاه بالأدوية حينا، ثم يمنعهم بأخر عن تناولها، ويصف لهم العقاقير الأخرى، حتى يُبِلُّوا من الأمراض، وينالوا الشفاء، أذلك جهل عن الطب أم هو يوافق درجات المرض، ومراحل الصحة وأحوال المريض؟ هكذا النسخ الذي يحول العباد من أمر إلى أمر، وليس ذلك بترك ما عزم عليه كما في البداء، وقد فرق الإمام أبو جعفر النحاس بين النسخ والبداء شرحًا وافيًا، يقول:

«إن النسخ تحويل العباد من شيء قد كان حلالا فيحرم، أو كان حراما فيحلل، أو كان مطلقا فيُحظر أو كان محظورا فيطلق، أو كان مباحا فيُمنع،

أو كان ممنوعا فيباح إرادة صلاح العباد، وقد علم الله العاقبة في ذلك، وعلم وقت الأمر به أنه سينسخه إلى ذلك الوقت، فكان المطلق على الحقيقة غير المحظور- كان الأول المنسوخ حكمة وصوابا، ثم نسخ وأزيل بحكمة وصواب، كما تزول الحياة بالموت، وكما تنقل الأشياء، فلذلك لم يقع النسخ في الأخبار، لما فيها من الصدق والكذب، وأما البداء: فهو ترك ما عزم عليه كقولك: امض إلى فلان اليوم، ثم تقول: لا تمض إليه فيبدو لك عن القول الأول، هذا يلحق البشر لنقصانهم، وكذا إذا قلت: ازرع كذا في هذه السنة ثم قلت: لا تفعل، فهذا البداء»[٨].

هذا، ومن جهة أخرى ذهب محمد بن بحر أبو مسلم الأصفهاني (م٣٣٢هـ) أحد أئمة الاعتزال في أصح ماروي عنه إلى أن النسخ يجوز عقلا، ويمتنع شرعا، وخاصة في القرآن الكريم، و يستدل بما قال تعالى في الكتاب: (لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[٩] على أن الآية تفيد أن أحكام الكتاب لاتبطل أبدا، والنسخ يبطل الحكم السابق، فلا يجوز له أن يبطل الكتاب أبدا، رد عليه العلماء بأن الآية مفهومها ليس كما يزعم الأصفهاني؛ بل يشير إلى أن القرآن الكريم كتاب خاتم، لم يتقدمه ما يبطله من الكتاب ولا يأتي بعده ما يبطله، فالنسخ شيء آخر، لا علاقة له بما استدل الأصفهاني.

وأما أهل السنة والجماعة فاتفق علماؤهم سلفا و خلفا على جواز النسخ عقلا، وثبوته شرعا، لما ورد في الكتاب واضحا من وجود النسخ ووقوعه مثل: (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ)[١٠] (يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ)[١١] ولكن لا يثبت النسخ إلا بوضوح الدلالة كقوله تعالى: (ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ)[١٢] وقول النبى ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها»[١٣] وقد يثبت بإجماع الأمة في عصر من العصور على أن هذا ناسخ، وذلك منسوخ، ولكن صرح العلماء بأن الإجماع ليس من شأنه أن ينسخ حكما منصوصا عليه؛ بل وإنما يدل على وقوع النسخ بين الأمرين المتناقضين، فالناسخ هوالدليل الذي أجمع العلماء على الاعتراف به لا الإجماع نفسه، كما يثبت النسخ بورود ما يفيد تعيين أحد من النصين المتعارضين، بتقدمه على الآخر، وتأخره عن الأول، منقول عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم بطرق قوية صحيحة، كأن يقول: نزلت هذه الآية بعد تلك الآية، أو نزلت هذه الآية قبل تلك الآية أو يقول: نزلت هذه عام كذا والتاريخ يؤيد تقدم أحدهما على الآخر، وتأخرالثاني عن الأول، لأن الصحابة أكثر معرفة ممن بعدهم بما عاصروا نزوله، وشاهدوا الأولى والأخرى، ولكن لا تقدم الإسلام وتأخره

حيث إن ما رواه المتقدم بالإسلام منسوخ، وما رواه المتـأخر عنـه ناسـخ، ولا يعتـبر فيـه قـول مفـسر، واجتهـاد مجتهـد بغـير سـند ولا دليـل، يقـول الإمـام السيوطي عن ابن الحصار:

إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أو عـن صـحابي يقـول: آيـة كـذا نسخت كذا قال: وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ، ليعرف المتقدم والمتأخر قال: ولا يعتمد في النسخ قول عوام المفسرين، ولا اجتهـاد المجتهـدين، مـن غـير نقـل صـحيح، ولا معارضه بينة، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكـم، تقـرر في عهـده صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والمعتمـد فيـه النقل والتاريخ، دون الرأي والاجتهاد(١٤).

إن موضوع النسخ وزعه الأئمة وأعلام التفسير على أربعة أقسام: نسخ القرآن بالقرآن، ونسخ السنة بالسنة، ونسخ القرآن بالسنة، ونسخ السنة بالقرآن، فلا خلاف بين العلماء في الأول والثاني، وأما الثالث والرابع فقد اختلفوا فيما بين مجيز و مانع. ورد الإمام الشافعي وأحمد بن حنبل في رواية، وأهل الظاهر على القسم الثالث استدلالا بما جاء من آيات النسخ وخاصة: (مَا ننسخَ مِنْ آيَة أوْنُنسِها نأتِ بِخَيْر مِنها أوْ مِثْلِها)(١٥) حيث إن السنة ليست مثل القرآن، ولاهي خيرا منه، فكيف يمكنها أن تنسخه؟ وقد أجازه الإمام أبو حنيفة ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل في رواية أخرى قائلين: إن السنة في الواقع وحي من الله، وليست هي نابعة من نفس الرسول، كما قال تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هوَ الأوَحْىٌ يُوحَى)(١٦) فالناسخ من السنة فيه نوع من شرحه وبيانه، بما كلفه الله سبحانه وتعالى في ضوء ما نزل عليه، وإذا نسخت السنة القرآن فإنما نسخه من حيث إنها و حي صدر من الله، لا من غيره.

وأما القسم الرابع فلا يعترف به الإمام الشافعي في إحدى الروايتين عنه مستدلا بأن السنة إذا نسخها القرآن يلبس ذلك على الناس دينهم، ويزعزع ثقتهم بالسنة، ويوقع في نفوسهم أنها غير مرضية لله، فتفوت بذلك غاية الشريعة والدين، من وجوب اتباع الرسول، وطاعته، في سننه وسيرته، بينما أجازه جمهور العلماء، وردّوا على ما استدل به المانعون بأن مثل هذه المخاوف والشبهات فاسدة بعيدة، لأن القرآن إذا نسخ بعضه بعضا فلِمَ لا ينسخ هو السنة مع أنها أقل درجة، وأهون مرتبة منه، فنسخ السنة بالقرآن كنسخ القرآن بالقرآن، لأن الكتاب والسنة كلاهما وحي من الله، فلا مانع من نسخ وحي بوحي، ألم ير المانعون أن صيام العاشوراء نسخه الآية: (فَمَنْ شَهدَ مِنكمْ الشهر فَلْيَصُمْه)(١٧) و استقبال بيت المقدس في الصلاة نسخه آية (فول وَجْهك شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَام)(١٨) فلا إشكال عليه عقلا و سمعا، و هو ثابت بالدليل القطعي الجازم.

نكتفي بذلك، فإن الأقسام الثلاثة الأخيرة لم تكن من موضوعنا، ولسنا بصددها إلا بما يحتاج إليه

القراء في سبيل معرفة النسخ، وإدراك ما يتصل به من البحوث والمهمات، فلا بد لنا الآن من صرف عنان القلم ثانيا إلى شرح ما يتعلق بالقسم الأول، الذي هو جوهر الموضوع، وملاكه، ويتنوع ذلك أصالة إلى ثلاثة محاور، الأول: ما نسخ حكمه وتلاوته، والثاني: ما نسخت تلاوته وبقي حكمه، والثالث: ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته. فالأول أجمع عليه العلماء سلفا و خلفا من القائلين بالنسخ، ولم يختلف فيه اثنان؛ لأن الآية: (مَا نَنسَخُ مِن آيَة أَوْنُنْسِها نأتِ بخَيْرٍ مِنْها أَوْمِثلها) تدل على ذلك دلالة واضحة مشرقة، ومثاله ما روي عن عائشة أم المؤمنين قالت: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، وتوفي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهن يقرأن من القرآن[١٩] يبدو بآخر الألفاظ أن التلاوة باقية، مع أن الأمر ليس كما تزعم، فإنه غير موجود في المصحف العثماني، فثبت بذلك أنه منسوخ حكما وتلاوة ولم تطلع على ذلك. والمحور الثاني الذي يبقى فيه الحكم وتكون التلاوة منسوخة، ذكر له العلماء أمثلة عديدة، أولها آية الرجم التي رواها عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب رواية صحيحة، حيث قال: كان فيما أنزل من القرآن «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة نكالا من الله، والله عزيز حكيم»[٢٠] وثانيها: ما رواه الإمام مسلم عن أبي موسى الأشعري: إنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة، فأنسيتها غير أني حفظت منها (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)[٢١].

ثالثها: ما روى الشيخان عن أنس في قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا، وقنت الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدعو على قاتليهم قال أنس: ونزل فيهم القرآن قرأناه حتى رفع «أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا، فرضي عنا وأرضانا» ثم نسخت تلاوتها[٢٢]. يقول الإمام الزركشي: يعمل بحكمه إذا تلقته الأمة بالقبول[٢٣] وأما المحور الثالث الذي يكون فيه الحكم منسوخا، والتلاوة باقية، فله أدلة لدى العلماء في القرآن الكريم، و نأتي بأحد منها على سبيل المثال (وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ)[٢٤] نسخها الآية الأخرى: (فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ)[٢٥] لكن مع ذلك هي مكتوبة في المصحف العثماني، وذلك موضوع اختلف فيه السلف والخلف بين الموسعين والمضيقين، فالذين ذهبوا إلى إكثارها مثل أبي جعفر النحاس، وهبة الله بن سلام، و محمد بن حزم الظاهري، وغيرهم من العلماء المتقدمين، الذين لايفرقون بين النسخ والتخصيص؛ بل يلحقون المخصصات والمقيدات كلها بزمرة الآيات المنسوخة، مثاله آية (وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ)[٢٦] فإن الحكم فيها عام يدل على حرمة النكاح مع الكافرات والمشركات إطلاقا، سواء كن من أهل الكتاب أو ممن يعبد الأصنام، ولكن لما جاءت الآية الأخرى

(وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ)[٢٧] قيدت المطلق بتخصيص العموم، حيث خرجت من الحرمة نساء اليهود والنصارى اللواتي أحصن فروجهن، وبقيت فيها المشركات عابدات الأصنام والتماثيل، فالآية الأولى منسوخة بالأخرى لدى المتقدمين، لذلك ازداد النسخ عدده عندهم و كثرت الآيات المنسوخة حتى بلغت المئات، ولكن الخلف لا يعترفون فيها بالنسخ فيها؛ بل يضعون ذلك موضع تخصيص العام، وتقييد المطلق، ولا يوسعونه مثل السلف، ولا يطلقون النسخ على آية، إلا إذا رفع الحكم كليا لا جزئيا، ومن أجل ذلك قل لديهم النسخ، وبقيت المنسوخات محدودة يسيرة، تعد على رؤوس الأصابع، وفي مقدمة هؤلاء العلماء المضيقين القاضي أبوبكر ابن العربي، والإمام جلال الدين السيوطي الذي بذل المساعي المشكورة في سبيل تحديد النسخ، و حصر آياته في تسع عشرة آية وقد أجاد ما حقق السيوطي، يقول الدكتور صبحي صالح:

وقد صرح المحققون من العلماء بأن كثيرا مما ظنه المفسرون نسخا ليس به، وإنما هو نسء وتأخير، أو مجمل أخر بيانه لوقت الحاجة، أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره، أو مخصوص من عموم، أو حكم عام لخاص، أو لمداخلة معنى في معنى، و أنواع الخطاب كثيرة، فظنوا ذلك نسخا، وليس به، وإنما هو الكتاب المهيمن، وهو نفسه متعاضد وقد تولى الله حفظه، فقال: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ)[٢٨].

حقًّا، لم يزل موضوع النسخ ملتويًا معقدًا أزعج العلماء حقبة من الدهر بكثرة الناسخ والمنسوخ، ولم يخرج لهم شيء بعد أن بذلوا كل ما في وسعهم من نفس و نفيس و غال ورخيص، حتى ظهر الإمام السيوطي الذي قام بغربلة الموضوع، وتوجيه المصطلح القديم والجديد، وشرح النسخ شرحا دقيقا، يحدد تعريفه، ويفسر معانيه، ويفرق بينه وبين التخصيص، الذي لم يزل يشتبه على المكثرين بالنسخ، في كل قرن، وبالتالي كثرت المحكمات، وتقلصت المنسوخات، وعاد العلماء يبحثون عما يخصص العام، ويقيد المطلق، ويوضح المجمل احترازا من التعرض لموضوع النسخ، وإجرائه فيما لا يعترف به المحققون، فلم يبق المنسوخ عند السيوطي إلا ٢١ آية[٢٩] كما جاء أخيرا العالم الهندي الكبير الإمام ولي الله الدهلوي (م١١٧٦) ليتفقد الموضوع من جديد، ويستعرض ثانيا كل ما وصفه الإمام السيوطي بالمنسوخ، حتى توصل بعد التدبر فيه بكل دقة وشمول إلى إنكار النسخ في أكثرها، والاعتراف به في عدد قليل، يقول في كتابه القيم «الفوز الكبير في أصول التفسير» و على ما حررنا لا يتعين النسخ إلا في خمس آيات[٣٠] وقد كثر في عصرنا الحديث العلماء المحققون الذين ذهبوا إلى أن القرآن الكريم كتاب خاتم، نسخ ما قبله من جميع الشرائع والصحف، فهو ناسخ، وليس فيه

بمنسوخ من آية، وعلى رأسهم في بلاد الهند علامة التفسير والحديث فضيلة المفتي سعيد أحمد الفالنفوري رحمه الله (م١٤٤١هـ) - رئيس هيئة التدريس سابقا في أزهر الهند دارالعلوم بمدينة ديوبند-[٣١] والجدير بالذكر أن هؤلاء العلماء عربًا و عجمًا ليسوا ممن ينكر النسخ عقلا مثل اليهود وممن يرفض جريانه في القرآن الكريم مثل الإمام المعتزلي أبي مسلم الأصفهاني، كما زعم بعض العلماء والمشايخ؛ بل وإنما يعتقدون كما يعتقد أهل السنة والجماعة. بوقوعه عقلا وسمعا في كل من أصوله وفروعه، ولكنهم يفرقون بين أقسامه الثلاثة، فاعترفوا بما يشتمل عليه الأول والثاني من نسخ التلاوة والحكم معا، وبقاء الحكم ونسخ التلاوة، وأما الثالث الذي يدل على نسخ الحكم وبقاء التلاوة، فلا يقولون به بل ينكرونه إنكارا شديدا لعدم اعترافهم ببقاء المنسوخ في القرآن الكريم الذي نزل عندهم ناسخا لا منسوخا، ولو قمنا بدراسة آيات النسخ واستعراض أسلوبها لوصلنا إلى أنها توافق ذلك، وليس في وسعها ما يؤكد بقاء المنسوخ في آيات الكتاب المنزل على النبي الخاتم، وإليه مال الإمام بدر الدين الزركشي[٣٢] في كتابه «البرهان في علوم القرآن» وغيره من كبار العلماء سلفا وخلفا كما أشار إليه العلامة الفالنفوري في «تحفة القاري شرح البخاري».

* * *

الهوامش :

(١) نواسخ القرآن لابن الجوزي، الباب السادس (باب فضيلة علم الناسخ والمنسوخ والأمربتعلمه ٤٥٩.
(٢) مناهل العرفان ٤٥٩/٢.
(٣) سورةالحج، رقم الآية ٥٢.
(٤) المهذب ٣٤٠/٧، الترمذي أبواب الحدود، باب ماجاء في من لا يجب عليه الحد.
(٥) سورة البقرة رقم الآية ١٨٧.
(٦) سورة البقرة رقم الآية ١٠٩.
(٧) سورة الأنعام، رقم الآية: ١٤٦.
(٨) الناسخ والمنسوخ: ص٦٣، نقلاعن نفحات العبيرللمفتي شعيب الله خان المفتاحي.
(٩) حم سجده رقم الآية: ٤٢.
(١٠) سورة البقرة رقم الآية:١٠٦.
(١١) سورة الرعد رقم الآية: ٣٩.
(١٢) سورة الأنفال، رقم الآية:٦٦.
(١٣) مسلم كتاب الجنائز، فصل في الذهاب إلى زيارةالقبور.
(١٤) الإتقان للسيوطي النوع السابع والأربعون في ناسخه ومنسوخه.
(١٥) سورةالبقرة، رقم الآية: ١٠٦.
(١٦) سورة النجم رقم الآية:٣.
(١٧) سورة البقرة رقم الآية: ١٨٥.
(١٨) سورة البقرة رقم الآية:١٤٤.
(١٩) تفسيرابن كثير ٢٦١/٣.
(٢٠) مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا.
(٢١) مسلم كتاب الصلاة باب استحباب القنوت.
(٢٢) صحيح البخارى كتاب المغازي باب غضوة الرجيع.
(٢٣) البرهان في علوم القرآن ٤١/٢.
(٢٤) سورة البقرة رقم الآية: ١٨٤.
(٢٥) سورة البقرة، رقم الآية: ١٨٥.
(٢٦) سورة النساء رقم الآية: ٢٢١.
(٢٧) سورة المائدة رقم الاية: ٥.
(٢٨) سورة الحجر رقم الاية: ٩.
(٢٩) مباحث في علوم القرآن، الباب الثالث الفصل السادس.
(٣٠) الفوز الكبير، الفصل الثاني في معرفة الناسخ والمنسوخ.
(٣١) تحفة القاري لشرح البخاري ٥٤/١.
(٣٢) البرهان في علوم القرآن ٥٠/٢.

شاعر المعاني والبديع
أبو تمام حبيب بن أوس الطائي
(١٨٨-٢٣١هـ/٨٠٣-٨٤٥م)

بقلم: **الأستاذ/ محمد ذيشان أحمد القاسمي**(*)

من هو أبو تمام؟

هو أديب بارز، وشاعر بليغ، يُعد من أشهر أعلام العصر العباسي في القرن الثاني بعد الهجرة، ومعروف بكونه أحد أمراء البيان، تميّز بالطموح والذكاء الفذّ، ناهيك عن البلاغة والفصاحة في القول، فنهج مسلكه الخاص بعيدًا عن أسلافه ومعاصريه من الشعراء المعروفين.

اسمه ونسبه:

وهو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، المشهور بأبي تمام.

مولده ونشأته:

اختلف المترجمون حول ولادة أبي تمام، فذُكر أن ولادته كانت في بلدة جاسم، وهي إحدى قرى حوران التي تقع بين دمشق وطبرية، وكانت في عام ١٩٠هـ، و ذُكر أنه ولد في عام ١٨٨هـ، نقل القولين ابن خلكان في وفيات الأعيان[١]، وأكثرهم يرجح القول الثاني، حسبما ذكره عميد الأدب طه حسين[٢].

أما عن نشأته فقد نشأ وترعرع في مصر[٣]، ثم بدا لأبيه أن ينتقل إلى دمشق، فانتقل إليها مع أبيه، وأرسله أبوه يشتغل حائكا، وهكذا نشأ أبو تمام وشب في دمشق[٤].

صفاته وأخلاقه:

ذكر ابن خلكان أنه كان أسمر اللون، طويل القامة، فصيح القول، حُلو الكلام وفيه تمتمة يسيرة[٥].

ونقل عمر فروخ عن الأنباري أنه - أبو تمام - كان موصوفا بالظرف وحسن الأخلاق، وكرم النفس[٦].

ثقافة أبي تمام ومسيرته الأدبية:

لازم حلق العلم بجامع عمرو بن العاص

(*) أستاذ العلوم الشرعية بمدرسة إمداد العلوم، حيدرآباد الهند.

بمصر، وأقبل يتعلم العلم ويحفظ الشعر في قوة إقبال ونهم، حتى قيل: إن كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع.

وابتدأ في نظم الشعر بمدح عياش بن لهيعة فأجازه بخمسة آلاف درهم(٧).

و ذكر عمر فروخ أنه بدأ حياته الشعرية في حمص بمدح أسرة عتبة بن أبي عبد الكريم الطائي. فاشتهر بقصائده العريقة التي تنوعت بين أشعار المدح والهجاء.

ثم خرج من الشام وتنقل بين مصر والشام، والعراق، واتصل بالخليفة المأمون ومدحه، كما قد طلبه الخليفة المُعتصم في بغداد، وأحسن إليه وميّزه عن بقية الشعراء في زمانه، حتى عُرف أبو تمام بشاعر الخليفة محمد المعتصم بالله.

أقام في العراق مدّة، ثم ولّى وجهه شطر خراسان، وبقي بها إلى أواخر سنة ٢٢٢هـ(٨).

خلاصة القول أنه لم يألف أبو تمام الاستقرار في بلد من البلدان مدة طويلة، فما إن هدأ قليلًا حتى عاد سيرته من التطواف(٩)، فكأنه شاعر رحالة.

خصائص شعر أبي تمام وأدبه:

قال ابن خلكان: إنه كان أوحد عصره في ديباجة لفظه ونصاعة شعره، وحسن أسلوبه(١٠).

وقال عمر فروخ: فقد عُد أبو تمام أشعر أهل زمانه. وأضاف: فضّله صديقه الشاعر علي بن الجهم على سائر الشعراء، وفضّله البحتري على نفسه(١١).

و حكى الصولي [المتوفى:٣٣٦هـ] أنه سمع المبرد [٢٨٦هـ] يقول: سمعت الحسن بن رجاء [المتوفى:٢٢٦هـ] يقول: «ما رأيت أحدًا قط أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه، من أبي تمام»(١٢).

امتاز أبو تمام بقصائده عن غيره من الشعراء في عصره، والتي تحلّت بالخصائص الآتية:

(١) كان ذا استيعاب للعلوم المعاصرة له، كالمنطق والفلسفة، ويبدع في توظيفها في أشعاره.

(٢) كان قوي الفكر غواص المعاني:

فهمُ واستيعاب العلوم المعاصرة له، كالمنطق والفلسفة، وتوظيفها في أشعاره.

قال المبرد: لأبي تمام استخراجات لطيفة ومعان طريفة، وهو صحيح الخاطر حسن الانتزاع.

ويقول الصولي: إن أبا تمام يصنع الكلام ويخترعه ويتعب في طلبه حتى يبدع(١٣).

(٣) كثرة اختراعه:

قال ابن رشيق: وأكثر المولدين معاني توليدا فيما ذكر العلماء أبو تمام(١٤).

(٤) استخدام الصنعة البديعية في أشعاره(١٥).

(٥) استخدام الغرائب من المعاني التي لم يسبقه إليها أحد، وهو ما تجلّى في ديوانه المشهور المشحون بالتعقيد والغموض(١٦).

أبرز مؤلفاته:

قدّم الشاعر أبو تمام العديد من المؤلفات المميزة، منها الآتية:

ديوان الحماسة.

فحول الشعراء.

مُختار أشعار القبائل.

الوحشيات.

نقائض جرير والأخطل(١٧).

ديوان الحماسة لأبي تمام:

قد سلك جمعٌ من العلماء مسلك الاختيار الشعري قديمًا وحديثًا، فتنوعت الاختيارات و تعددت المختارات، وإذا أمعنا النظر في هذه المختارات الشعرية نجدها على ستة أنواع تقريبًا، منها مختارات اختار مؤلفوها من القصائد جياد القصائد واصطفى حِسان المقطعات، وعلى رأس هذه المختارات وأشهرها من نار على علم «ديوان الحماسة» لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي [المولود:١٨٨هـ والمتوفى:٢٣١ هـ](١٨).

قصة تأليف «الحماسة لأبي تمام»:

تفيد الأخبار أن أبا تمام حبيب بن أوس الطائي كان في رحلة إلى خراسان، وبينما هو في طريق عودته إلى بغداد اعترضه الثلج عند مدينة همذان، فمال إلى صديق له هناك، اسمه أبو الوفا بن سلمة، ريثما يذوب الثلج، فيستطيع أن يتابع سيره إلى العراق.

وكان عند أبي الوفاء بن سلمة خزانة كتب قيمة، فانصرف إليها أبو تمام، واشتغل عليها، وقضى وقته في عمل مختارات من الشعر العربي، حتى انتهى من كتابين كبيرين: كتاب «الحماسة»، كتاب «الوحشيات»(١٩).

مكانة «ديوان الحماسة» في المختارات الشعرية:

تعد «حماسة» أبي تمام، أهمَّ اختيار شعري في التاريخ الأدبي، واشتهر شهرة غطت على شهرة كل مجموع آخر شبيه به.

حتى نقل المرزوقي (المتوفى:٤٢١ هـ) في شرحه الإجماع على فضل حماسة أبي تمام على سائر المختارات الشعرية، فيقول: «وقع الإجماع من النقاد

عـلى أنــه لم يتفـق في اختيـار المقطعـات أنقـى ممـا جمعه»[٢٠].

ويقـول بعـض النقـاد القُـدامَى: «إن أبـا تمـام في اختياره الحماسة، كان أشعرَ منه في شعره»[٢١].

ويقـول عـثمان بـن عبـد الله العمـودي (شـارح ألفيـة الحماسـة): محـل هـذا الـديوان منهـا - أي مـن دواوين أبي تمام - كمحل القطب من الرحى[٢٢].

تسمية الحماسة وتقسيمها:

تنقسم الحماسة إلى عشرة أبواب، وهي عشرة فنـون مـن الـشعر: الحماسـة، والمراثـي، والأدب، والنسيب والهجـاء، و المـديح، والـصفات، والـسير والنعاس، والمُلح، ومذمة النساء، وقد سمى أبو تمام هذا المجموع كله باسم الباب الأول منه «الحماسة»، وهو أطول الأبواب حتى عُدَّ «ثلث الكتاب» وأيضًا هو أهمها في هذا المجموع القيم[٢٣].

وفاة أبي تمام:

اختلـف المترجمون حـول وفـاة أبي تمـام، فـذكر ابن خلكـان أنه تـوفي في مدينة الموصل سنة ٢٣١هـ، وقيل: إنه تـوفي في جمادى الأولى سنة ٢٢٨هـ، وقيل: في المحرم سنة ٢٣٢هـ، رحمه الله[٢٤].

* * *

الهوامش:

(١) وفيات الأعيان (١٧/٢) دار صادر، بيروت.

(٢) مـن حـديث الـشعر والنثـر لطـه حـسين (ص:٩٠)، مؤسـسة الهنداوي.

(٣) وفيات الأعيان (١٧/٢) دار صادر، بيروت.

(٤) دراسات في الأدب والعلم و الفلسفة، (ص:٢٤) دار صادر.

(٥) وفيات الأعيان (١٧/٢) دار صادر، بيروت.

(٦) دراسات في الأدب والعلم و الفلسفة، (ص:٣٦) دار صادر.

(٧) الإناسة بشرح ألفية الحماسة (ص:١٧) آفاق المعرفة.

(٨) دراســات في الأدب والعلــم و الفلــسفة، (ص:٢٥ إلى ٣١) دارصادر.

(٩) المصدر السابق، (ص:٣٢).

(١٠) وفيات الأعيان (١٢/٢) دار صادر، بيروت.

(١١) دراسات في الأدب والعلم و الفلسفة، (ص:٨٤) دار صادر.

(١٢) شرح الحماسة للمرزوقي (١٤/١) دار الجيل، بيروت.

(١٣) دراسات في الأدب والعلم و الفلسفة، (ص:٥٨) دار صادر.

(١٤) المصدر السابق، (ص:٦٢).

(١٥) المصدر السابق (ص:٨٠).

(١٦) المصدر السابق (ص: ٦٧، و ٧٧).

(١٧) المصدر السابق (ص: ١٠٦).

(١٨) الـسلافة مـن روائـع الـشعر وبدائعـه (ص:٢٠) دار الظاهريـة، الكويت.

(١٩) دراســات في الأدب والعلــم و الفلــسفة، لــ عمــر فــروخ (ص:١٠٤)، دار لبنان، بيروت.

(٢٠) شرح الحماسة المرزوقي (٣/١).

(٢١) شرح حماسة أبي تمام للفارسي (٣/٢) المكتبة الشاملة.

(٢٢) الإناسة بشرح ألفية الحماسة (ص: ٩) آفاق المعرفة، السعودية.

(٢٣) ودراســات في الأدب والعلــم و الفلــسفة، لــ عمــر فــروخ (ص:١٠٤)، دار لبنان، بيروت.

(٢٤) وفيات الأعيان (١٧/٢) دار صادر، بيروت.

* * *

الهجرة النبوية وتأسيس المدينة الإسلامية

بقلم: الأستاذ/ الحسين عصمة -المغرب

تمهيد: شكلت الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة منعطفا حاسمًا في مسار التاريخ الإسلامي، وذلك نظرًا لما أسست له من تحولات عميقة وجذرية سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي.. فقد بات من المتفق عليه بين المؤرخين أن حدث الهجرة كان إعلانًا لبزوغ مرحلة الدولة الإسلامية، بعد مرحلة الدعوة في مكة المكرمة، وقد وضع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خلال هذه المرحلة الجديدة المعالم الأساسية للمجتمع الإسلامي في كل أبعادها، الفردية والجماعية، العامة والخاصة.. بل إن تقسيم آيات القرآن الكريم إلى مكية ومدنية حسب مراحل نزولها، دليل على أهمية وخصوصية كل مرحلة، وبالتالي فإن الهجرة كحدث فاصل بين هاتين المرحلتين جدير بالاهتمام والدراسة، وهو حدث ذوأبعاد كثيرة يهمنا هاهنا أن نتطرق لواحد منها هو الجانب العمراني. فكيف أسس الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الهجرة مدينة بأكملها، أو بالأحرى كيف أعاد «تهيئة» مدينة صغيرة ليجعل منها في ظرف وجيز نسبيا حاضرة مهمة نافست ولا تزال أهم حواضر عصرها؟ ما هي الأسس المادية والتنظيمية التي اعتمدها الرسول الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بناء النواة الأولى للمجتمع الإسلامي؟ وما هي خصائص المجتمع العمراني وكيف ساهمت العقدية الجديدة في بلورتها؟

لماذا الهجرة إلى يثرب؟

إن اختيار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـ«يثرب» بتأييد وتوفيق من الله تعالى روعيت فيه اعتبارات دقيقة، كيف لا والهجرة لم يكن فقط «موقفا تعبديًّا ينتظر منه الحماية للمسلمين فحسب؛ بل كان حكما ربانيًّا بإنشاء دولة الإسلام[1] فالرسول ﷺ وهو يتطلع إلى مستقبل الإسلام والمسلمين خلال المراحل المقبلة، لم يقع اختباره على يثرب بالصدفة، هو الذي كانت له تجارب مع مواقف أخرى داخل وخارج الجزيرة العربية: بني حنيفة، الطائف، الحبشة.. بل لاشك أنه وفق لهذا الاختيار بتأييد من ربه لاعتبارات يمكن أن نجمل أهمها فيما يلي[2]:

أولًا: الموقع الجغرافي للمدينة: إن الموقع الجغرافي لأية مدينة يعتبر من أهم العوامل التي تحدد مدى تطورها وازدهارها؛ بل إن نشأة وتطور كثير

مــن المــدن والحــواضر يرجــع في المقــام الأول إلى الخصائص الجغرافية التي تميز موضعها، و«يثرب» تمتاز بموقعها الجغرافي على طريق تجارة الشام عصب الاقتصاد القرشي ومتاخمتها لمنطقة حضارية عريقة في الــشمال حيــث التيــارات المــسيحية والثقافــات الإغريقية تتجاذبها وتدفع بتأثيرها إلى الحجاز[٣].

ثانيًا: تـوافر بنيـة اقتـصادية معتـبرة مـن خـلال تنوعها ومستوى تطورها فهناك الزراعة التي تعتبر يثـرب إحـدى أهـم واحاتهـا في الجزيـرة العربيـة إلى جانب الطائف وعسير وحضرموت... فهذه المناطق كانت تمتاز بخصوبة أراضيها ووفرة مياهها وكثرة وتنـوع أغراسـها[٤] وقـد كـان التطـور الزراعـي في «يثرب» حصيلة الخيرة الزراعية التي أتى بها اليهود من بلاد ا لشام من جهة والعرب التي هاجرت من بلاد اليمن من جهة ثانية [٥] أما فيما يخص النشاط الصناعي والحرفي فقد قامت في «يثرب»مجموعة من الـصناعات خاصـة تلـك التـي تعتمـد عـلى الإنتـاج الزراعـي المحـلي. كـما عرفـت بعـض الـصناعات التعدينية كصناعة الأسلحة والآلات المستخدمة في الري والزراعة[٦].

وأخيرا فإن النشاط التجاري كان له حضوره أيـضًا بحكـم موقـع يثـرب كنقطـة عـلى طريـق الـشام فـضلا عـلى أن فـائض الإنتـاج الزراعـي والـصناعي يقتضي تطوير أساليب التجارة لصرفه نحو الخارج.

ثالثا: من الناحية السياسية والاجتماعية، كانت «يثـرب» تعـيش في ظـل تنـوع ديمـوغرافي يطبعـه اختلالـه في مـوازين القـوى لـصالح اليهـود عـلى حـساب العـرب، كـل ذلـك في ظـل غيـاب سـلطة سياسية مركزية موحدة[٧].

هـذه بـاختزال شـديد هـي الوضـعية التـي كانـت تميـز يثـرب عيشة الهجرة إليهـا. فـما هـي الإجـراءات التـي اتخـذها الرسـول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لتـأمين نـواة الدولة الإسلامية الأولى الممثلة في المدينة المنورة؟ أو بتعبـير آخـر مـا هـي عنـاصر المدينـة الإسـلامية كـما وضعها الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؟

يمكـن تـصنيف هـذه العنـاصر إلى نـوعين، عناصر مادية وعناصر تنظيمية:

العناصر المادية:

وتتمثل في مجموعة من الإنجازات ذات الطابع العمراني التي قام بها الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ داخل المدينـة، التـي نجـم عنهـا تغـير جـذري في هيكلتهـا العمرانية، وذلك بالموازاة مع التغيرات العميقة على المــستوى الاجتماعــي والاقتــصادي والــسياسي والتنظيمي، في هذا الإطار يمكن أن تذكر المنشآت التالية:

أولًا: بناء المسجد: كـان بناء المسجد هـو أول عمـل بـاشره الرسـول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعـد دخولـه «يثرب» وقد اختار له الموضع الذي بركت فيه ناقته وكان مريدا[٨] لغلامين يتيمين من الأنصار في كفالة سعد بـن ذرارة سـام الرسـول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هـذه الأرض فعرض عليه الغلامان أن يهباه له، لكنه عليه الصلاة والسلام أبى حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير

وكان في المكان شجر غرقد ونخل وقبور قديمة فأمر الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالشجر فقطع وبالقبور فنبشت وتم بناء المسجد وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مئة ذراع، وفي الجانب مثل ذلك أو دونه، ثم بني باللبن وجعل عمده الجذوع وسقفه بالجريد[٩]، وجعلت قبلته في اتجاه الشمال، نحو بيت المقدس، قبل أن يأتي الأمر الإلهي بتغيير القبلة نحو مكة المكرمة سنة ٢هـ ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ (البقرة:١٤٤) إن الأهمية الروحية للمسجد ومركزية دوره في الحياة العامة للمسلمين باعتباره مجالا وفضاء ليس فقط للعبادة ولكن ليتلقى فيه المسلمون تعاليم الإسلام وتوجهاته، ومنتدى تلتقي فيه وتتألف العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزاعات الجاهلية وحروبها، وقاعدة لإدارة جميع الشؤون، وبرلمانا لعقد المجالس الاستشارية التنفيذية ومع ذلك كله (مأوى) لعدد كبير من المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم دار ولا مال ولا أهل[١٠] هذه الأهمية التي للمسجد يترجمها الجانب العمراني، إذ لا يخفى أن المسجد الجامع الذي أسسه الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان يحتل مركز المدينة ويشكل ذواتها فمنه وإليه تمتد الشوارع والطرق الرئيسية في اتجاه ضواحي وأطراف المدينة، فقد أشارت الروايات التاريخية إلى طريق يمتد من المسجد ويتجه غربًا حتى يصل إلى جبل سلع وطريق من المسجد يخترق منازل بني عدي بن النجار ويصل إلى قباء جنوبًا ومن قبا وجد طريق يتجه شمالا إلى البقيع(١١)، وعن هذه الشوارع تتفرع طرقات ثانوية لتسهيل التواصل بين مختلف أطراف المدينة وللإشارة فإن التوسع العمراني والامتداد المجالي للمدينة أديا إلى إقامة مساجد على مستوى الأحياء، وهي مساجد للصلوات الخمس فقط، فيما صلاة الجمعة كانت تقام في مسجد الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ باعتباره المسجد الجامع، وقد كان الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هو من يشرف على إنشاء هذه المساجد كما يتبين ذلك من حديث جابر بن أسامة حيث قال: لقيت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالسوق في أصحابه فسألتهم أين يريد، فقالوا: «اتخذ لقومك مسجدا، فرجعت فإذا قومي فقالوا: خط لنا مسجدا وغرز في القبلة خشبة»[١٢].

ثانيا: تخطيط الأحياء السكنية: حول المسجد الجامع أعطى الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ انطلاقة إنشاء مجموعة من الأحياء، وذلك من خلال عملية تقسيم الأراضي الشاغرة التي وهبها له الأنصار ووضعوها تحت تصرفه عليه الصلاة والسلام لتوزيعها على المهاجرين قصد استيطانها.

فقد ذكر ابن سلام أن الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حين هاجر إلى المدينة جعل له أهلها «كل أرض لا يبلغها الماء يصنع بها ما يشاء»[١٣] وقد قام الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بتوزيع هذه الأراضي وفق نظام الخطط، حيث أقطع لكل قبيلة خطة خاصة بها تاركا لها حرية التصرف في تقسيمها بين أفرادها وفقا

لظروفها وإمكاناتها وحاجاتها.

وهكذا خط مثلا لبني زهرة من ناحية مؤخرة المسجد، ولعبد الرحمن بن عوف الحصن المعروف باسمه، وأقطع الزبير بن العوام بقيعا واسعا(١٤)، وقد أدت عمليات الاختطاط هذه التي تعني في المدن الإسلامية الأولى حيازة موقع ما في منطقة معلومة بإذن من السلطات قصد إعماره(١٥)، أدت هذه العمليات إلى تجميع النسيج العمراني للمدينة بعد تعمير المجالات الفارغة التي كانت تفصل بين مختلف أحيائها.

من خلال طريقة توزيع الأراضي أو ما يمكن أن نسميه «بالسياسية العقارية» التي انتهجها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يتبين على أنه عليه الصلاة والسلام أراد التوفيق بين اعتبارين أساسيين، متناقضين في الظاهر، لكن في واقع الأمر هما متكاملان تمامًا ويؤديان وظيفة واحدة ضرورية وحيوية جدا لأية مدينة، ويتعلق الأمر بمسألة الاندماج الاجتماعي (Lintegration sociale) والاعتبارين اللذين سعى من خلالهما الرسول ﷺ، لتحقيق هذه الغاية، على الطريقة الإسلامية طبعا، هما: من جهة تذويب الفوارق القبلية، والهويات القائمة على اعتبارات الدم والنسب والعشيرة، لصالح هوية جديدة تعلو فوق كل الهويات، هي هوية العقيدة بالنسبة للمسلمين فيما بينهم، وهوية المواطنة بالنسبة لسكان المدينة في عمومهم مسلمين، يهود، كفار.. ومن جهة ثانية احترم الرسول ﷺ الحساسيات القبلية والروابط العائلية التي كانت مستحكمة في البيئة الاجتماعية العربية، وذلك في الحدود التي لا تتناقض إليه مع الهوية الجديدة للأمة، وهكذا تحققت وحدة المدينة على المستوى المجالي واندماجها على المستوى الاجتماعي بعد أن كانت وحدات متفرقة وأحيانا متناحرة دون كيان ولا هوية.

ثالثا: إنشاء المرافق الاجتماعية والاقتصادية:

تتمثل أهم هذه المرافق فيما يلي:

١ - السوق في إطار اهتمامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجانب الاقتصادي والمعاشي للمسلمين، أنشأ لهم سوقًا خاصة بهم فحكمها شروط وأخلاقيات جديدة (الصدق، تحريم الربا والاحتكار والغش في المكاييل) خلافا للأسواق التي كان يسيطر عليها اليهود ويفرضون فيها شروطهم (الخراج على المتاجرة، التعامل بالربا، الاحتكار) وقد اختار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكانا قريبا من سوق بني قينقاع أقام فيه قبة كبيرة رمزا وعلامة يتجمع فيها المسلمون للاتجار فيها.

وقد اغتاط اليهود من هذا التوجه الذي يروم الاستقلال الاقتصادي، فقاموا بزعامة كبيرهم كعب ابن الأشرف بهدم القبة التي بناها الرسول الأكرم وقطعوا أطنابها.

بيد أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يلتفت إلى هذا السلوك الاستفزازي، وهذه المحاولة اليائسة من قبل عناصر اليهود المتعصبة، بل رد عليها عمليًّا

فقال متحدثا عن كعب بن الأشرف وفعلته، والله لأضربن له سوقا هو أغيظ من هذا[١٦]، واختار مكانا فسيحا بأطراف المدينة بعيدًا عن المحال السكنية[١٧] وذلك باقتراح من أحد الصحابة الذي قال للنبي ﷺ إني نظرت موضعًا للسوق، أفلا تنظرون إليه؟ قال: «بلى، فقام معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما رآه أعجبه وركض برجله عليه السلام وقال: نعم سوقكم هذا. فلا ينقصن ولا يضربن عليكم بخراج»[١٨] وقد ظلت هذه السوق طيلة عهد الرسول ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين عبارة عن فضاء حر من دون بناء، يخضع في تدبيره لنظام سنة المساجد، كما كان يقول الخليفة عمر رضي الله عنه: الأسواق على سنة المساجد، من سبق إلى مقعده فهو له حتى يقوم إلى بيته أو يفرغ من بيعه»[١٩] ولم يبدأ البناء في الأسواق إلا على عهد معاوية بن أبي سفيان الذي سن تأجير أماكن السوق.

٢- الشوارع والطرقات:

أولى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اهتمامًا كبيرًا للطرقات باعتبارها مجالا لحركة الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية كما سبقت الإشارة، عمد الرسول ﷺ إلى ربط كل أحياء المدينة بالمسجد الجامع من خلال شوارع رئيسة تفرعت عنها طرق فرعية تمتد إلى مختلف التجمعات السكنية لتسهيل حركة المرور داخل المدن، وقد كان عرض الطرق الرئيسة يقدر بين أربعة وخمسة أمتار[٢٠] بينما عرض الطرق الفرعية كان يقدر بين مترين وثلاث أمتار[٢١].

واعتبر الرسول ﷺ الطريق واجبًا وحقًّا لكل مواطن فمن حيث هي واجب، فلضرورة المساهمة فيها عند الاقتضاء باعتبارها نوعا من الارتقاء كما يستخلص ذلك من حديث في الصحيحين رواه أبو هريرة أن الرسول ﷺ قال: «إذا اختلفتم في الطريق فاجعلوه سبعة أذرع»[٢٢] وأما من حيث هو حق فلأن استعماله مشاع بين الجميع، وقد جعل الرسول ﷺ للطرق آدابا عامة، فقد أخرج أبو داود عن سهيل بن معاذ بن أنس الجهنمي عن أبيه قال: «غزوت مع الرسول ﷺ غزوة كذا وكذا، فضيق الناس المنازل وقطعوا الطريق فبعث نبي الله ﷺ مناديًا ينادي في الناس، من ضيَّق منزلا أو قطع طريقا فلا جهاد له»[٢٣]، كما دعا الرسول ﷺ إلى إماطة الأذى عن الطريق، وبارك كل مساهمة في إصلاحها والاعتناء بها، جاء في سنن أبي داود عن ابن عمر أنه قال: «مطرنا ذات ليلة، فأصبحت الأرض مبتلة فجعل الرجل يأتي بالحصى في ثوبه فيبسط تحته فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: ما أحسن هذا «كما أخرج مسلم من حديث أبي برزة قال: «قلت يا نبي الله علمني شيئا أنفع به، فقال، اعزل الأذى عن طريق المسلمين».

٣- المرافق العامة:

استكمالا للعناصر الأساسية بالمدينة، أنشأ الرسول ﷺ مجموعة من المرافق ذات وظائف حيوية، منها ما يستجيب للحاجات الأمنية والدفاعية مثل إقامة معسكرات بضواحي المدينة

لتدريب الجدد كمعسكر الجرف أو معسكر أسامة، ومنها ما يستجيب للحاجات الاجتماعية كمقدار العلاج والتطبيب، حيث أقام الرسول ﷺ بعد رجوعه من غزوة الخندق خيمة بالمسجد لأجل التداوي، وقد كانت هذه المبادرة نواة ما سيعرف بالبيمارستانات، كما أقيمت دور الضيافة لاستقبال الوفود كان أهمها دار عبد الرحمن بن عوف.

واتخذت مواضع لقضاء الحاجات تسمى «المناصع» واختيرت مواضع للذبح بعيدا عن السكان، وعيّن مكانًا لصلاة العيد «المصلى»(٢٤).

هذه هي أهم المنجزات العمرانية التي تحققت في المدينة المنورة بعد مقدم الرسول الأكرم ﷺ إليها، بيد أن المدينة: أي مدينة، لاتستكمل شروطها وعناصرها من خلال جوانبها المادية فقط، التي رغم أهميتها، تبقى مجرد هياكل جامدة ما لم تلتحم بها الجوانب الإنسانية في أبعادها الثقافية والنفسية، وهذه الأبعاد هي التي اهتم بها رسول الله ﷺ في تنظيمه للحياة العامة في المدينة وذلك من خلال العناصر التنظيمية.

العناصر التنظيمية

بالموازاة مع الإنشاء المادي لعناصر المدينة، اشتغل الرسول ﷺ بالجانب التنظيمي باعتباره الإسمنت الذي يربط بين تلك العناصر؛ بل الأساس الذي عليه ترتكز وبه تشتغل. ويتمثل هذا الجانب التنظيمي في الإجراءات التي اتخذها عليه السلام عند قدومه إلى المدينة في إطار النهوض بها لتصبح النواة الصلبة للدولة الإسلامية وقاعدة انطلاقها. ومن بين أهم هذه الإجراءات:

أولا: تغيير اسم المدينة: لعل من اللافت للانتباه أن من بين ما قام به الرسول ﷺ في المدينة تغيير اسمها من «يثرب» إلى «المدينة المنورة» فقد جاء في كتب السيرة أن النبي ﷺ أمر بإهمال اسم «يثرب» وحثّ على استعمال اسم «المدينة المنورة» بدلا منه، كما نسبوا إليه في هذا الصدد قوله: «يقولون يثرب وهي المدينة، وكان عليه الصلاة والسلام لا يذكر كلمة «يثرب» أبدا، ويذكر أيضًا أن محمد بن الحسن بن ذبالة المعروف بالمديني نسبة إلى المدينة المنورة، روى أن النبي ﷺ قد نهى عن استعمال اسم «يثرب» وتذهب بعض المصادر إلى أن مجرد استعمال كلمة «يثرب»يعد خطيئة حيث روى الإمام أحمد حديثا جاء فيه: «من سمى المدينة «يثرب» فليستغفر الله ثلاثا»(٢٥).

لايتعلق الأمر هنا بمجرد إجراء شكلي أو مزاجي حاشاه ﷺ ؛ بل إنها خطوة أساسية في الإستراتيجية التغييرية للرسول ﷺ تترجم عمق التحول الذي ينشده.

قاسم المدينة هو عنوانها الذي يختزل خصائصها التاريخية والثقافية والاجتماعية والنفسية وبالتالي فإن تغيير هذا العنوان هو محاولة لتغيير هويتها كما تتمثلها الذاكرة الجماعية لساكنها، من هنا فإن إعطاء اسم جديد للمدينة هو إيذان بميلاد مرحلة جديدة بخصوصيات جديدة، منذ البداية

عمـل الرسـول ﷺ عـلى أن يتكـرس هـذا التوجـه الجديـد في الأذهـان عـلى اعتبـار أن أي وحـدة مجاليـة (الحي، المدينة أو القبيلة، الوطن..) لكي يكون لها كيان ووجود حقيقي لابد من أن يشعر مواطنوها بقوة الانتماء إليها، وبالاندماج الكامل فيها، بغير هذا الشعور بالانتماء وبغير هذا الاندماج، لن يتأتى للمـواطن أن يكـون فـاعلا ومعطـاء داخـل مجالـه، وأزمـة المـدن المعـاصرة اليـوم تتمثـل هـي أن فئـات عريضة من ساكنيها تعيش وضعية التهميش وبالتالي تجد نفسها في حالة غربة قاتلة، إذ لا تكاد تجمعها بمحيطها أية رابطة حميمية غير رابطة العلاقات المادية الجافة.

وتكرسًا لهذا الاتجاه الذي يصب نحو مزيد من الالتحام والتألف بين الإنسان والمجال، وبين الإنسان والإنسان، كانت عملية المواخاة بين المسلمين عامة، والمهاجرين والأنصار خاصة وكانت عملية الموادعة بـين المـسلمين وغـيرهم مـن مكونـات المجتمـع الإسلامي الأخرى خاصة اليهود.

ثانيـا: المواخـاة: فـضلا عـلى أن هـذا الحـدث سجل لأروع النماذج على مدار التاريخ الإنساني في التضحية من أجل المبادئ والمعتقدات (من طرف المهاجرين)، وفي الإيثار ونكران الذات (من جانب الأنصار)، فإنه يشهد على عبقرية الرسول ﷺ في مواجهـة الحـالات الـصعبة والمواقـف الحرجـة، فقـد كـان من شـأن الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة أن تـنجم عنهـا اخـتلالات كبـيرة عـلى المـستويات الاجتماعيـة والاقتـصادية بـسبب التـدفق المفـاجئ للمهـاجرين عـلى المدينـة، عـلى نحـو أدى إلى ارتفـاع محـسوس لـساكنتها في وقـت وجيـز لا يـسمح بالانـدماج التـام للعنـاصر الجديـدة في نـسيجها العمـراني والاجتماعـي، أمـام هـذا الوضـع كيـف تصرف الرسول ﷺ ليتفادى أزمة حقيقية كانت توشك أن تقع في المدينة على مستوى السكن، وعلى مستوى التشغيل، وعلى مستوى الاندماج النفسي والاجتماعي للوافدين الجدد في محيطهم الجديد... كـان لجـوء الرسـول ﷺ بتأييـد وتوفيـق مـن ربـه إلى عمليـة المواخـاة هـو الحـل المناسـب لتلـك اللحظـة التاريخية الدقيقة في حياة المسلمين، وقد استهدفت تلك العملية:

أولًا: تقسيم العبء الاجتماعي وتفتيته ليتخذ شكل حالات فردية عوض أن يكون ظاهرة مجتمعية عامة، وهـذا مـا مكـن مـن تجـاوزه والتغلـب عليـه في ظـرف وجيـز بـدل أن يـصبح ظـاهرة تـستفحل مـع الزمن، فالأنصار تحملوا إخوانهم بكل طواعية؛ بل تنافسوا على استضافتهم حتى اقترعوا فيما بينهم من أجل ذلك، والمهاجرون من جهتهم لم يستغلوا هذا الكرم ولم يعيشوا عالة على إخوانهم؛ بل إنهم قبلوا هـذه الوضـعية فقـط كمرحلـة استثنائية وانتقاليـة، إذ سرعـان مـا اسـتطاعوا الاسـتقلال بأنفـسهم بعـد أن وظفـوا مهـاراتهم في المجـال التجـاري وأصـبحوا عناصر فاعلة في أسواق المدينة، وبذلك شكلوا قيمة مـضافة في اقتـصادها عـلى اعتبـار أن الأنـصار كـانوا

أهل زرع وضرع والمهاجرين أهل شراء وبيع، وبذلك كمل بعضهم بعضا، حيث ملأ المهاجرون فراغا كان يستغله اليهود في أسواق المدينة كتجار ومرابين.

ثانيا: فضلا عن هذا الهدف الاجتماعي ذي البعد المادي كان لعملية المواخاة هدف معنوي تربوي يتمثل في تجسيد معاني التكافل والتضامن بين المسلمين وفي بداية تنزيل التطورات الجديدة التي جاء بها الإسلام عن العلاقات الإنسانية وعن المال.

ثالثًا: الموادعة: كان هاجس بناء ورص «الجبهة الداخلية» لدولة المدينة حاضرا بقوة في الإستراتيجية التنموية التي قادها الرسول ﷺ منذ وصوله إلى المدينة، لذلك عمل على إقرار دستور متكامل في حينه ينظم العلاقات ويحدد حقوق وواجبات كل الحساسيات التي كانت تكون المجتمع المدني، فبالإضافة إلى المسلمين الذين يتشكلون من الأنصار (لأوس والخزرج) والمهاجرين، كان هناك المشركون (الأوس والخزرج) واليهود، والأعراب الذين كانوا يعيشون على تخوم المدينة، وإذا كان الرسول ﷺ قد اطمأن إلى الجبهة الإسلامية من خلال عملية المواخاة، فإنه لأجل احتواء أو ضبط العناصر الأخرى خاصة اليهود، وبأمن جانبهم، عمل على موادعتهم «لتكون المدينة كلها، مسلمها وكافرها يدا في يد أمام الأعداء من الخارج»[٢٦]، ومجمل ما نصت عليه هذه المعاهدة الموادعة[٢٧]:

- للجماعة الإسلامية شخصية دينية سياسية مستقلة بها.
- الحرية الدينية مكفولة للجميع ما لم يحصل من طرف ظلم أو إثم.
- يتعاون سكان المدينة من مسلمين وغيرهم ماديًّا وعسكريًّا وأدبيًّا، في الدفاع عن أي عدوان خارجي.
- رسول الله ﷺ هو الرئيس الأعلى لسكان المدينة وإليه يرجعون في كل ما يختلفون فيه.
- الأمة تضم الجماعة التي تعتقد عقيدة واحدة بصرف النظر عن اعتبارات القرابة أو الأرض أو النسب أو اللغة... فالمسلمون يؤلفون أمة واحدة واليهود يؤلفون أمة واحدة... وتؤلف هذه الأمة كلها المجتمع الإسلامي الذي يخضع لنظام الإسلام.

الخلاصة:

من خلال ما سبق يتبين أن أسس المدينة النبوية قامت على أبعاد متعددة، وراعت كل الاعتبارات المتصلة بحياة الإنسان العامة والخاصة الكفيلة بتوفير الظروف المناسبة له ليمارس رسالته وينهض بالمسؤولية المنوطة به من قبل الله تعالى عمارة الأرض ونمائها، والانطلاق في أرجائها لإشاعة قيم ومعاني الخير والحق والعدل والسلام. وليساهم في تشييد صرح الحضارة الإنسانية.

وإذا كانت مجموعة من المدن والحواضر على امتداد العالم ترزح، في ظل العولمة المعاصرة تحت وطأة أزمات حادة تجد تجلياتها في تفاقم الفوارق الاجتماعية وفي استفحال معضلة البطالة والتهميش

وفي أزمة تلوت البيئة وفي تدهور الجانب الأمني... فإن وضعيتها هذه ليست إلا ترجمة لفقدان المدينة لمجموعة من وظائفها (الاجتماعية.. التربوية..) مما أدى إلى اختلال التوازن بين عناصرها نجمت عنه هذه الأزمات القاتلة التي تعاني منها اليوم.

* * *

الهوامش والمراجع:

(١) د. أسامة عبد المجيد عبد العالي: «رؤية اقتصادية لأول وثيقة سنها الرسول ﷺ في الإسلام، مجلة الإسلام اليوم (إسيسكو) العدد١٣-١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص:٢٠.

(٢) نستثني هنا طبعًا الاعتبارات المباشرة والمعروفة والمتمثلة بالخصوص في ترحيب أهل المدينة بالرسول ﷺ وأصحابه بعد بيعتهم له (بيعة العقبة الأولى والثانية).

(٣) د. إبراهيم بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية: دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري. المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م الطبعة الأولى، ص:١٢٤.

(٤) محسن خليل: في الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي. دار الرشيد للنشر (١٩٨٢) ص:٣٨.

(٥) العمري، أكرم ضياء: المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٩٨٣، أورده د. أسامة عبد المجيد مرجع سابق ء:١٨.

(٦) محسن خليل: مرجع سابق ء:٤٨.

(٧) د. إبراهيم بيضون الحجاز والدولة الإسلامية، مرجع سابق ص:١٠٤.

(٨) مكان مخصص لتجفيف التمر.

(٩) د. سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة دار الفكر الطبعة الثامنة (١٤٠٠/١٩٨٠) ص١٩٤.

(١٠) منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، دار الأمان الطبعة الثالثة (١٩٨٧م) ص:٢١٦.

(١١) محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة (١٣٧) (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص:٥٨.

(١٢) أسامة بن زيد عن معاذ بن عبد الله بن خبيب عن جابر بن أسامة الجهني عن عبد الحي الكتاني: نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، ص٧٦.

(١٣) محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مرجع سابق ص٥٤.

(١٤) محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مرجع سابق ص٥٤.

(١٥) جميل عبد القادر أكبر: عمارة الأرض في الإسلام: مفارقة الشريعة بأنشطة العمران الوضعية، مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة (١٤١٩/١٩٩٨) ص١٨٢.

(١٦) د. أسامة عبد المجيد عبد العالي: رؤية اقتصادية، مرجع سابق، ص:٢٣.

(١٧) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، مرجع سابق ص:٤٥.

(١٨) روى ابن ماجه نحوه في كتاب التجارات باب الأسواق ودخولها بسند فيه ضعف، أورده خالد مصطفى عرب: تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، كتاب الأمة عدد٥٨ (١٤١٨) ص:٥٤.

(١٩) السمهودي: وفاء الوفاء: ج الثاني، ص:٧١٨ عن محمد عبد الستار المدينة الإسلامية، مرجع سابق، ص:٢٥٤.

(٢٠) السمهودي، وفاء الوفاء، مرجع سابق، ص:٥٩.

(٢١) مصطفى صالح لمعى: المدينة المنورة: تطورها العمراني وتراثها المعماري. دار النهضة العربية (١٩٨١) ص٣٢/٣٣ أورده دم يحى وزيري، العمارة الإسلامية والبيئة، كتاب عالم المعرفة عدد ٣٠٤، ص٤٥ (١٤٢٥/٢٠٠٤).

(٢٢) رواه الجماعة إلا النسائي، وفي لفظ لأحمد، إذا اختلفوا في الطريق رفع بينهم سبعة أذرع.

(٢٣) أبو داود، كتاب الجهاد.

(٢٤) لمزيد من التفاصيل انظر محمد عبد الستار عثمان المدينة الإسلامية، مرجع سابق، ص:٢٠.

(٢٥) توفيق الشنتوقي: المدينة في الحضارة العربية الإسلامية، مجلة الحوار عدد٧ السنة الثانية (١٩٨٧) ص:١٠٥.

(٢٦) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، الطبعة السابعة (١٤١١هـ) ج١/٢ ص:١٦١.

(٢٧) محمود شاكر: المرجع السابق: ص١٦٣.

* * *

بقية إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

تعالوا نقرأ قصة من قصص سلفنا الصالح أصحاب محمد-ﷺ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حكموا البلاد، وتولوا المناصب العليا في الدولة، ثم كانوا أفقر الناس وأقلهم مالا، حتى زهدوا في وسائل الحياة، وقد تدفقت الأموال عليهم، وأقبلت إليهم الدنيا بكل ما لها من زينة ورونق وبهاء ونعيم وترف.

فهذا سعيد بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وُلِّي عددًا من المناطق الإسلامية، منها: منطقة حمص، استعمله عليها سيدنا عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، يقول فيه ابن الأثير في «أسد الغابة»: لما قدم عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حمص أمرهم أن يكتبوا له فقراءهم، فرفع الكتاب، فإذا فيه سعيد بن عامر، قال: من سعيد بن عامر؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، أميرنا. قال: وأميركم فقير؟ قالوا: نعم. فعجب، فقال: كيف يكون أميركم فقيرًا! أين عطاؤه؟ أين رزقه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، لا يمسك شيئًا، قال: فبكى عمر، ثم عمد إلى ألف دينار، فصرَّها وبعث بها إليه، وقال: أَقرئوه مني السلام، وقولوا له: بعث بها إليك أمير المؤمنين، فاستعن بها على حاجتك، قال: فجاء بها الرسول، فنظر إليها فإذا هي دنانير، فجعل يسترجع، فقالت له امرأته: ما شأنك؟ أصيب أمير المؤمنين؟ قال: أعظم، قالت: فظهرت آية؟ قال: أعظم من ذلك، قالت: فأمر من الساعة؟ قال: بل أعظم من ذلك، قالت: فما شأنك؟ قال: الدنيا أتتني، الفتنة أتتني، دخلت علي، قالت: فاصنع فيها ما شئت، قال لها: أعندك عون؟ قالت: نعم، فصَرَّ الدنانير فيها صُرَرًا، ثم جعلها في مِخلاة، ثم بات يصلي حتى أصبح، ثم اعترض بها جيشًا من جيوش المسلمين، فأمضاها كلها، فقالت له امرأته: لو كنت حبست منها شيئًا نستعين به! فقال لها: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: لو اطلعت امرأة من نساء الجنة إلى الأرض لملأت الأرض من ريح المسك. فإني والله ما أختار عليهن.

فهذا أمير «حمص» في أعلى قائمة الفقراء بين رعيته، لا يأخذ من بيت المال شيئًا؛ يعيش حياته فقيرًا، ويأتيه هدية من خليفة المسلمين، فلايمسك منها لنفسه شيئًا، وينفقها في وجوه البر.

ويقول صاحب «سير السلف الصالحين»: أصاب سعيد بن عامر حاجة شديدة، فبلغ ذلك عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فبعث إليه بألف دينار، فدخل على امرأته، فقال: بعث إلينا بما ترين، فقالت: لو أنك اشتريت لنا أدمًا، وطعامًا، وادخرت سائرها، فقال لها: أولا أدلك على أفضل من ذلك؟ نعطي هذا المال من يتجر لنا فيه، فنأكل من ربحه وضمانه عليه؟ قالت: نعم إذًا، فاشترى أدمًا وطعامًا، واشترى بعيرين، وغلامين يمتاران عليهما. وفرقها على المساكين، وأهل الحاجة، قال: فما لبث إلا يسيرًا حتى قالت له امرأته: قد نفذ كذا وكذا، فلو أتيت هذا الرجل فأخذت لنا منه الربح، فاشتريت لنا مكانه، قال: فسكت عنها، قال: ثم عاودته فسكت عنها حتى آذته، ولم يدخل بيته إلا من ليل إلى ليل، وكان رجل من أهل بيته ممن يدخل بدخوله، فقال لها: ما تصنعين؟ إنك قد آذيتيه، وإنه قد تصدق بذلك المال، فبكت أسفًا على ذلك المال، قال: ثم

إنه دخل عليها يومًا فقال:على رسلك، إنه كان لي أصحاب فارقوني منذ قريب، ما أحب أني صدرت عنهم، وأن لي الدنيا وما فيها، ولو أن خيرة من خيرات الحسان اطلعت من السماء لأضاءت لأهل الأرض، ولقهر ضوء وجهها الشمس والقمر، ولَنَصيفٌ تكسي خير من الدنيا وما فيها، فلأنت في نفسي أحرى أن أدعك لهن من أن أدعهن لك، قال: فسمحت ورضيت.

وقصة أخرى أغرب من الخيال، عن خالد بن معدان، قال: استعمل علينا عمر بن الخطاب-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، بحمص سعيد بن عامر بن حُذيم الجمحي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما قدم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حمص، قال: يا أهل حمص، كيف وجدتم عاملكم؟ فشكوه إليه، وكان يقال: حمص الكويفة الصغرى لشكايتهم العمال، قال: فشكوا أربعًا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، قال: أعظم بها، قال: فماذا؟ قالوا: يغنظ الغنظة بين الأيام، يعني يأخذه موتة- أي: شبه الجنون-، قال: فجمع عمر بينهم وبينه، وقال: اللّهم، لا تقبل رأيي فيه اليوم، ما تشكون منه ؟ قالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، قال: والله إن كنت لأكره ذكره، قال: ليس لأهلي خادم ، فأعجن عجيني، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ، ثم أخرج إليهم، فقال: ما تشكون منه؟ قالوا: لا يجيب أحدا بليل، قال: ما يقولون؟ قال: إن كنت لأكره ذكره، إني جعلت النهار لهم، وجعلت الليل لله، قال: وما تشكون منه؟ قالوا: إن له يومًا في الشهر لايخرج إلينا فيه، قال: ما يقولون؟ قال: ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا لي ثياب أبدلها، فأجلس حتى تجف ثم أدلكها ثم أخرج إليهم من آخر النهار، قال: ما تشكون منه؟ قالوا: يغنظ الغنظة بين الأيام، قال: ما يقولون؟ قال: شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة، قد بضعت قريش لحمه ثم حملوه على جذعة، فقالوا: أتحب أن محمدًا مكانك؟ فقال: والله، ما أحب أني في أهلي وأن محمدًا شيك شوكة، ثم نادى: يا محمد، فما ذكرت ذلك اليوم، بتركي نصرته في تلك الحال، وأنا مشرك لا أؤمن بالله العظيم، إلا ظننت أن الله لا يغفر لي بذلك الذنب أبدًا، قال: فيصيبني تلك الغنظة، فقال عمر: الحمد لله الذي لم يقبل فيه رأيًا، فبعث إليه ألف دينار، وقال: استعن بها على أمرك، فقالت امرأته: الحمد لله الذي أغنانا من خدمتك، فقال لها: فهل لك في خير من ذلك؟ ندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما نكون إليها، قالت: فنعم، فدعا رجلا من أهله يثق به فصَرَّرها صُررًا، ثم قال: انطلق بهذه إلى أرملة آل فلان، وإلى يتيم آل فلان، وإلى مسكين آل فلان، وإلى مبتلى آل فلان، فبقيت منها ذُهيبةٌ فقال: أنفقي هذه، ثم عاد إلى عمله، فقالت: ألا تشتري لنا خادمًا؟ ما فعل ذلك المال؟ قال: سيأتيك أحوج ما تكونين.

يقول في «الاستيعاب»: ولاه عمر-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بعض أجناد الشام، فبلغ عمر أنه يصيبه لمم، فأمره بالقدوم عليه، وكان زاهدًا، فلم ير معه إلا مزودًا وعكازًا وقدحًا، فَقَالَ له عمر: لَيْسَ معك إلا ما أرى؟ فَقَالَ له سعيد: وما أكثر من هذا؟ عكاز أحمل بها زادي، وقدح آكل فيه. فَقَالَ له عمر: فارجع إلى عملك. فأبى وناشده إلا أعفاه. فقيل: إنه أعفاه.

أمير حمص في أعلى قائمة الفقراء

تروي لنا كتب التاريخ والسير كثيرًا من قصص الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الحكام والأمراء في مختلف عصور نقرأها، ثم ننظر في الأمراء والحكام الذين نعايشهم ونسبر أحوالهم، وننظر فيما جمعوا من متاع الدنيا، وحطامها أيام تولّيهم وظيفة من الوظائف الحكومية التي ولاهم الله تعالى ليكونوا رعاة لمصالح الشعب، يحملون الكل، ويكسبون المعدوم، ويغيثون الملهوف، و يعينون على نوائب الحق، لا أن يملؤوا جيوبهم وحساباتهم البنكية داخل الدولة وخارجها بالقناطير المقنطرة من المال: مال الدولة ومال الشعب الذي قدمه بكد يمينه وعرق جبينه؛ لتوفير الخدمة التي يحتاج إليها الناس.

وتجد الحكام والأمراء والموظفين من أسفل السلم الوظيفي إلى أعلاه – إلا من عصمه الله تعالى- ينهبون خيرات البلاد نهبًا منظمًا، لايبالون من حلال جاءت أم من حرام، في أمن من رقابة صارمة: رقابة جادة و حازمة، لا تخشى ظالمًا، ولايأخذها في الله لوم لائم؛ سطو مقيت مشين على خزينة الدولة وأموالها؛ وجشع بغيض على الكسب السريع من أخصر سبلها.

نَامَتْ نواطير مصرٍ عَن ثعالبها ... وَقد بَشِمَن فَمَا تَفْنَى العَنَاقِيْد

تجد البائس المسكين الذي لايجد لقمة العيش، ثم يلمع نجم سعده فيتولى منصبًا من المناصب، فيعود في عشيةٍ وضحاها من أصحاب الملايين والبلايين.

وأصبحت الخيانة في مال الدولة أمرًا عاديًّا؛ بل مفخرة من المفاخر- والعياذ بالله-، فهذا الكاتب الإداري -بله الشاغلين المناصب العليا- تجده يخون خزينة الدولة مقابل رشوة يأخذها من المراجعين إلى المصلحة التي ينتمي إليها لقضاء حاجة من حاجاتهم، فيملأ جيبه.

نجد دولًا إسلاميةً -ولو ذهبنا نعمل لها قائمة لطالت- غنيةً بالثروات المعدنية الغالية من البترول وغيرها يسيل لها لعاب الغرب والشرق في أعلى قائمة الدول الفقيرة. لماذا؟ لأن ولاة أمورها والغون في الرشى، ونهب مال الدولة، وإنهاك الاقتصاد الوطني بنزيف ثروات البلاد إلى الخارج، والصراع على السلطة ليمتصوا موارد الدولة، ويعيشوا في بحبوحة من الحياة، والشعب يكدح ويئن تحت وطأة الفقر والبؤس والمسكنة.

(البقية على ص ٥٤)

أبو عائض القاسمي المباركفوري